المدخل إلى العهد القديم

(الكتب المقدسة)

الدكتور القس صموئيل يوسف خليل



دار الثقافة

طبعة ثانية

الكتــاب : **المدخل إلى العهد القديم**
المؤلـف : **د.ق. صموئيل يوسف**
صدر عن : دار الثقافة- ص.ب ١٦٢ -١١٨١١ - البانوراما - القاهرة
رقـــم الإيـــداع : ٧٨٨٠/ ١٩٩٣
الترقيم الدولــي : 6- 170 - 213 - 977
المطبعــــــــة : مطبعة سيويرس ت: ٦٢٢١٤٢٥/٦
الإخراج الفني والجمع : دار الثقافة
تصميم الغـــــلاف : ماري عادل

١٠ / ٥٨٦ طم / ٢-٣ / ١٩٩٣ - ٢٠٠٥

إشعيــاء

أطلق على هذا السفر اسم «إشعياء» على اسم النبي إشعياء بن آموص ويعني في العبرية «الرب يخلص».

وتضمن السفر الذي يحتوي على ستة وستين أصحاحاً إعلانات ونبوات بقضاء الله على شعبه إسرائيل ويهوذا لارتدادهم عن الرب يهوه وإعلانات أخرى ضد تعدي الشعوب الأجنبية أيضاً. بينما توضح النبوات الأخرى من جانب آخر نعمة ومحبة الله المتفاضلة نحو شعبه الذي يمتثل لدعوته في خوف واتضاع.

إنها رؤيا إشعياء بن آموص التي رآها على يهوذا (المملكة الجنوبية) وعاصمتها أورشليم، في أيام عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا (١:١).

أقسام ومشتملات السفر

أولاً: تمرد الشعب ووعد الرب بالخلاص والدينونة (١:١-٢٤:٥).

١- مقدمة (١:١).

٢- إعلانات بالدينونة والافتقاد (١:٢-٥:٢).

٣- يوم الرب (٢:٦-٢٢).

٤- قضاء الحكام (٣:١-١٥).

٥- نساء أورشليم المتكبرات (٣:١٦-٤:١).

٦- تتطهر صهيون بالعقاب (٤:٢-٦).

٧- أغنية الكرمة (٥:١-٧).

٨- الذين لا يخافون الله ولا يهابون إنساناً (٥:٨-٢٤).

ثانياً: صُر الشهادة واختم الشريعة (٦:١-٨:١٨).

١- رؤى إشعياء في الهيكل (٦:١-١٣).

٢- إشعياء النبي وحرب سوريا وأفرايم (٧:١-٨:١٩).

أ- آية شآر ياشوب (٧:١-٩).

ب- آية عمانوئيل (٧:١٠-١٧).

جـ- الغزو القادم (٧:١٨-٢٥).

د- آية مهيرشلال حاش بز (٨:١-٤).

هـ- خوف الإنسان وخوف الرب (٨:٥-١٩).

ثالثاً: غضبه لا يرتد (٩:١-١٠:٤).

١- مولد الملك المسيا (٩:١-٧).

٢- عقاب السامرة المتجبرة (٩:٨-٤:١٠).

رابعاً: لا تخافوا من أشور (١٠:٥-٦:١٢).

١- تهديد أشور (١٠:٥-٣٤).

٢- الرجاء المسياني (١١:١-١٦).

٣- أحاسيس الشكر الفياضة (١٢:١-٦).

خامساً: صخب وهياج شعوب كثيرة (١٣:١-١٨:٢٣).

١- سقوط بابل وبلوغ ملكها الهاوية (١٣:١-٢٧:١٤).

٢- سقوط فلسطين (١٤:٢٣-٣٢).

٣- سقوط موآب (١٥:١-١٤:١٦).

٤- سقوط دمشق والسامرة (١٧:١-١٤).

٥- سقوط الحبشة وتجديدها (١٨:١-٧).

٦- متاعب مصر (١٩:١-٦:٢٠).

٧- ستهزم بابل وتدمر أوثانها (٢١:١-١٠).

٨- هزيمة أدوم وانتصار إسرائيل (٢١:١١-١٢).

٩- تأسيس ددان وقيدار (٢١:١٣-١٧).

١٠- رؤيا سقوط أورشليم. وشبنا يملك عوضاً عن ألياقيم (٢٢:١-٢٥).

١١- سقوط وعبودية صور (٢٣:١-١٨).

سادساً: استيقظي وابتهجي يا ساكنة التراب (٢٤:١-١٣:٢٧).

١- دينونة شاملة على خطية عامة (٢٤:١-٢٣).

٢- الشكر للرب المخلص والمعزي لصهيون (٢٥:١-١٢).

٣- أنشودة الابتهاج على تعزية يهوذا (٢٦:١-٢١).

٤- عقاب المضايقين وخلاص شعب الرب (٢٧:١-١٣).

سابعاً: لا تكونوا متهكمين لئلا تُشدد رُبطكم (٢٨:١-٢٠:٣٢).

١- دينونة العابثين والمستهزئين من أفرايم ويهوذا (٢٨:١-٢٩).

٢- عقاب المرائين (٢٩:١-٢٤).

٣- الثقة في مصر تقود إلى الثقة في الله (٣٠:١-٣٣).

٤- الله المدافع عن أورشليم وليس مصر (٣١:١-٩).

٥- خلاص إسرائيل وتجديدها روحياً (٣٢:١-٢٠).

ثامناً: سيادة الله والمجازاة (٣٣: ١٠-٣٥: ١٠).

١- عقاب الخائنين الغادرين وانتصار المسيح (٣٣: ١-٣٥: ١٠).

٢- كلمات الدينونة على الأمم، قوة العالم (٣٤: ١-١٧).

٣- البركة لمن يتبع القداسة (٣٥: ١-١٠).

تاسعاً: إشعياء النبي وحزقيا الملك (٣٦: ١-٣٩: ٨).

١- سنحاريب يجد في حصار أورشليم (٣٦: ١-٣٧: ٤ب).

٢- إعلان الرب: سيرحل سنحاريب ملك أشور ويُقتل (٣٧: ٤جـ-٧).

٣- خطاب تهديد ملك أشور وصلاة حزقيا ملك يهوذا (٣٧: ٨-٢٠).

٤- هزيمة سنحاريب وتدمير جيشه وخلاص يهوذا شعب الرب (٣٧: ٢١-٣٩).

عاشراً: قرب مجيء الله (٤٠: ١-٤٨: ٢٢).

١- سيادة الرب المعزي (٤٠: ١-٣١).

٢- مواجهة الرب للوثنيين غير المؤمنين (٤١: ١-٢٩).

٣- عبد الرب: الفرد والأمة (٤٢: ١-٢٥).

٤- شهادة الشعب المفدي من العبودية الكلدانية (٤٣: ١-٢٨).

٥- شهادة إسرائيل عن الله ضد العبادة الباطلة (٤٤: ١-٢٨).

٦- مجيء المنقذ الأممي (كورش) وتحديد الوثنيين (٤٥: ١-٢٥).

٧- سقوط بابل وخلاص إسرائيل (٤٦: ١-٤٧: ١٥).

٨- مجد الله يعلن بواسطة خلاص إسرائيل (٤٨: ١-٢٢).

إحدى عشر : فداء إسرائيل (٤٩: ١-٥٥: ١٣).

١- عبد الرب : دعوته - إرساليته (٤٩: ١-٢٦).

٢- إثم إسرائيل وطاعة العبد (٥٠: ١-١١).

٣- الثقة في الله وعدم الخوف من إنسان (٥١: ١-١٦).

٤- الرب صار ملكاً (٥١: ١٧-٥٢: ١٢).

٥- آلام عبد الرب (٥٢: ١٣-٥٣: ١٢).

٦- تعزية إسرائيل (٥٤: ١-١٧).

٧- النعمة المتفاضلة على التائبين (٥٥: ١-١٣).

اثنا عشر: تحذيرات ووعود (٥٦: ١-٦٦: ٢٤).

١- مشاركة الأمم في البركة مع إسرائيل (٥٦: ١-٨).

٢- القادة العميان وعبادتهم الباطلة (٥٦:٩-٥٧:١٣).

٣- مثابرة النعمة (٥٧:١٤-٢١).

٤- الخدمة المقبولة لدى الله (٥٨:١-١٤).

٥- تدخل الله للنجاة (٥٩:١-٢١).

٦- تحقيق مجد الرب (٦٠:١-١٢).

٧- الأخبار السارة لخلاص صهيون (٦١:١-١١).

٨- الشعب المسياني (٦٢:١-١٢).

٩- سنة الفداء (٦٣:١-٦).

١٠- صلاة ووساطة النبي (٦٣:٧-٦٤:١٢).

١١- الدينونة والخلاص (٦٥:١-٢٥).

١٢- بركة ورجاء المؤمنين (٦٦:١-٢٤).

الخلفية التاريخية

في الوقت الذي تمركز فيه نشاط جميع الأنبياء العظام مثل إيليا وأليشع وميخا وعاموس وهوشع في المملكة الشمالية وعاصمتها إسرائيل (والتي انفصلت عن يهوذا بعد موت سليمان الملك أيام ابنه رحبعام) لم يرد الشيء الكثير عن دور الأنبياء في مملكة الجنوب (يهوذا وبنيامين) غير بعض الأنبياء، الذين لا يعرف عنهم الشيء الكثير مثل عزريا (٢أخ ١٥:١-٧) وحناني (٢أخ ١٦:٧-١٠) وياهو بن حناني (١مل ١٦:١-٤، ٢أخ ١٩:٢).

ويبدو - بالنسبة للعلماء - أن الأمور المهمة كانت تتقرر في الشمال. وعاموس النبي الذي أتى من الجنوب اختار أن يلقي رسالته في بيت إيل مقدس بيت الملك يربعام الثاني ملك إسرائيل، هذا من الناحية الدينية.

أما من الناحية السياسية فكانت شبيهة بالناحية الروحية. وكانت مملكة إسرائيل هي الرائدة والمتفوقة على يهوذا عدا بعض الأحيان التي كانت تتعرض فيها إسرائيل لبعض المشكلات الداخلية، فكانت يهوذا تتفوق وتكاد تصل إلى مساواة نظيرتها إسرائيل، وبوجه عام كانت إسرائيل تمثل القوة الأعظم والأغنى. وذلك لموقعها الإستراتيجي في التجارة وطرقها المؤدية إليها بين مصر وبلاد ما بين النهرين.

كما دعيت إسرائيل (الأرض المتسعة) بأرض عمري وأسرته. وقد ورد هذا التعبير في سجلات سرجون الخاصة بفتوحاته لإسرائيل. وذلك تكريماً لعمري ملك إسرائيل ودوره السياسي الكبير في الحكم. كما أطلق على ياهو أيضاً لقب ابن عمري في السجلات الأشورية[1].

وقد وصل الملك عزيا أو عزريا (٧٨٣-٧٤٢ ق.م) إلى أوج مجده في يهوذا جنوباً. في ذات الوقت الذي وصل فيه يربعام الثاني إلى مجده في إسرائيل في الشمال.

وعلى العكس من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي عانت منه المملكة الإسرائيلية، فقد تمكنت مملكة يهوذا من تحقيق هذا الاستقرار. فقد ظلت أسرة داود هي الحاكمة على مملكة يهوذا طوال تاريخها حتى سقوط أورشليم عام ٥٨٧ ق.م، بينما تعاقب على مملكة إسرائيل العديد من الأسر الحاكمة وهي كالآتي:

(1) Ancient Near Eastern Texts, (3rd.ed), pp.284-285



أسرة يربعام ما بين ٩٢٢ - ٩٠١ ق.م.

أسرة بعشا ما بين ٩٠٠ - ٨٧٦ ق. م.

أسرة عمري ما بين ٨٧٦ - ٨٤٢ ق.م.

أسرة ياهو ما بين ٨٤٢ - ٧٤٥ ق.م.

وذلك ثمرة تعرضها للعديد من مراحل التمرد والتحديات السياسية. وعلى عكس إسرائيل تقدمت يهوذا من حياة البادية إلى أرقى مستوى حضاري في الحكم والمدنية. ولم يكن لإسرائيل القوة للسيطرة على الشر الذي تغلغل بين شعبها بسبب تسلط السادة على الفقراء صغار الفلاّحين (إش ٥:٨-١٠، ميخا ٢:١-٢، إش ١:١٠-٢، ميخا ٣:١-٤). وانتشر الظلم الاجتماعي الذي اتزر بالتقوى الدينية (إش ١:١٠-١٧). أما عن النظام الاجتماعي في يهوذا فكان مستقراً. ويرجع هذا الاستقرار السياسي من الوجهة اللاهوتية، (كما سترى من *الدراسة للسفر*)، إلى أن الرب أقام عهداً خاصاً مع داود، بأن يحفظ عرشه له ولنسله من بعده. إنه داود الذي عمل المستقيم في عيني الرب ولم يحد عن شيء مما أوصاه به كل أيام حياته إلا في قضية أوريا الحثي (١مل ١٥:٥). وهو داود الذي أجازه الرب في البوتقة ليخرج منها مصفى كالذهب الخالص (قارن ١صم ١٢:٧-١٤). كما جاء عن داود أنه عبد الرب، ملك يخاف الله أجرى عدلاً وحقاً وبراً لشعبه (٢صم ٨:١٥). وجاء في (٢صم ٧) عن العلاقة الخاصة بين الله وداود، التي امتدت إلى كل نسله من بعده (٢صم ٧:١١-١٣). وقد وعد الرب داود على يد ناثان النبي بأن رحمته لا تنزع عن بيت داود إلى الأبد (٢صم ١٤:١٧).

عزيا ملك يهوذا

ملك عزيا (عزريا) بن أمصيا على مملكة يهوذا، اثنين وخمسين عاماً في أورشليم، وكان ابن ست عشرة سنة حين ملك. وعمل ما هو مستقيم في عيني الرب حسب كل ما عمل أمصيا أبوه، ولكن المرتفعات لم تنتزع، بل كان الشعب يذبحون ويوقدون على المرتفعات. وضرب الرب الملك فكان أبرص إلى يوم وفاته، وأقام في بيت المرض. وكان يوثام بن الملك على البيت يحكم على شعب الأرض (قارن ٢مل ١٥:١-٧).

وتحت قيادة الملك عزيا، وصلت يهوذا إلى أوج مجدها وعظمتها اقتصادياً وعسكرياً. والتقرير المختصر عنه في (٢مل ١٥:١-٧) والذي ورد بأكثر تطويل في (٢أخ ٢٦) عن الإنجاز الهائل والرائع لعزيا من تحديث للجيش، وفتوحاته الكثيرة لمناطق فلسطينية، جعلته في مصاف المتحكمين تجارياً في الطرق الرئيسية، بالإضافة إلى تجارته المتسعة مع العربية، وإعادة تشييد الطريق التجاري لميناء مدينة إيلات (عصيون جابر سابقاً)، وتطويره للزراعة. وقد عرف عنه أنه أحب الأرض لأنه كان يحب الفلاحة (٢أخ ٢٦:١٠).

غير أن عزيا واجه ظروفاً قاسية أزعجت رجال يهوذا خلال حكمه، منها إصابته بالبرص عام ٧٥٠ ق.م تقريباً. وعزله في بيت خاص مما أطفأ شهرته ومجده، وتولى ابنه يوثام (كما سلفت الإشارة) كولي للعهد على البيت وحاكماً للشعب (٢مل ١٥:٥). ويرى علماء الكتاب بأن إصابة الملك عزيا بالبرص ترجع إلى رغبة قلبه أن يكون رئيساً سياسياً ودينياً. «ولما تشدد ارتفع قلبه إلى الهلاك وخان الرب إلهه، ودخل هيكل الرب ليوقد على مذبح البخور» (٢أخ ٢٦:١٦) وهذا مخالف لشريعة الرب الذي يحل للكهنة فقط من نسل هرون المقدسين بدخول الهيكل حتى يبخروا بخوراً أمام الرب (قارن عدد ١٦:٤٠).

«ودخل وراء عزيا إلى الهيكل عزريا الكاهن، ومعه ثمانون من كهنة الرب بني بأس وقاوموا عزيا الملك. وقالوا له ليس لك يا عزيا أن توقد للرب، بل للكهنة بني هرون المقدسين للإيقاد. أخرج من المقدس لأنك خنت (لأنك لم تلتزم

بشريعة الرب) وليس لك من كرامة عند الرب الإله (وكانوا على استعداد أن يخرجوه عنوة). فحنق عزيا وكان في يده مجمرة للإيقاد وعند حنقه على الكهنة خرج برص في جبهته أمام الكهنة في بيت الرب بجانب مذبح البخور... فطردوه من هناك. حتى أنه هو نفسه بادر إلى الخروج لأن الرب ضربه» (٢أخ ٢٦:١٦-٢٠) غير أن اسم عزيا ظل رمزاً لقوة واستقرار يهوذا (قارن إش ٦:١).

وفي الوقت الذي بدأت فيه مملكة الشمال (المملكة الإسرائيلية) في الانهيار بعد موت يربعام الثاني (بن يوآش)، بدأت يهوذا في الازدهار وعادت إلى ما كانت عليه من تقدم أيام حكم الملك سليمان، إلا أنه لاح في الأفق تهديد الإمبريالية الأشورية بصعود تغلث فلاسر إلى الحكم.

وفي هذا الوقت، وبالتحديد في السنة التي مات فيها عزيا الملك عام ٧٤٢ ق.م دعي إشعياء ليكون نبياً للرب مرسلاً لإسرائيل. ودام دور إشعياء النبوي قرابة أربعين عاماً. تغيرت خلالها خريطة العالم السياسية، بعد أن تعاقبت الأزمات والأحداث. وقد وقع الحدث التاريخي الأول أيام إشعياء عام ٧٣٥ ق.م عندما غزت جيوش آرام (سوريا) وأفرايم (إسرائيل) أرض يهوذا، لإرغامها على الدخول في تحالف معها ضد الزحف الأشوري (قارن إشعياء ٧:١-٢)، ولم يتم ذلك (قارن أعداد ٣-٧)، وكان هذا بلا طائل فقد كُتب له الفشل، لأنه في عام ٧٣٣ ق.م - ٧٣٢ ق.م هزم تغلث فلاسر سوريا وقتل رصين ملكها (قارن ٢مل ١٦:٧-٨).

كما تقدم تغلث فلاسر ملك أشور نحو أرض إسرائيل أيام فقح بن رمليا ملكها وأخذ عيون، وآبل بيت معكه، ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى أشور (٢مل ١٥:٢٩).

أما الحدث الثاني الذي وقع في حياة النبي إشعياء عام ٧٢٢ ق.م عندما ثار سخط شلمنأسر الخامس ضد إسرائيل وحاصر السامرة عاصمة المملكة، وخلال حكم سرجون الثاني ملك أشور، سارت جيوش أشور نحو مدينة أشدود عام ٧١٢ ق.م. (قارن ٢مل ١٧:٣-٥). وفي ختام خدمة النبي إشعياء، حاول سنحاريب ملك أشور (ابن سرجون) أن يستولى على مدينة أورشليم أيام حزقيا ملك يهوذا عام ٧٠١ ق.م. غير أنه هُزم هزيمة ساحقة (قارن ٢مل ١٨:١٧-١٩:٣٧، إشعياء ٣٦:١-٣٧:٣٨).

ومن خلال هذه الأزمات السياسية أدرك النبي إشعياء بأن أي تحالف ضد أشور، كان بمثابة عهد مع الموت. وقد تعلمت إسرائيل ذلك بالتجربة المريرة ورغم هذا لم يكن النبي إشعياء مجرد محلل سياسي. بل كانت مسئوليته الأساسية كنبي هي تفسير ما يقوله الرب من نبوات وإعلانات. وماذا هو عامل في الأحداث السياسية الراهنة.

الكاتب وزمن الكتابة

تعرّض سفر إشعياء لمناقشات عديدة ومطولة عمن هو كاتب السفر. وسوف نستعرض الآراء المختلفة والمشاكل العديدة التي نجمت عن الدراسات النقدية.

ساد الاعتقاد لسنين بل لأجيال عديدة أن النبي إشعياء هو كاتب السفر كله المكون من ستة وستين أصحاحاً. غير أنه انتشر هذه الأيام الاعتقاد بين الدارسين النقديين أن إشعياء النبي الذي عاش في القرن الثامن ق.م لم يكتب الجزء الثاني (من أصحاح ٤٠-٦٦).

وجاء في التلمود اليهودي بابابترا Baba Bathra 15a أن حزقيا وأصحابه، كتبوا سفر إشعياء، والأمثال، ونشيد الأنشاد وسفر الجامعة.

ولفترة طويلة اعتقد بأن الأصحاحات من (٤٠-٦٦) كتبت بواسطة العديد من الكاتبين غير أن البعض الآخر يعتقد بوحدة هذه الأصحاحات مثل جيزينيس W.Gesenius والذي يدافع بقوة عن هذه الأصحاحات ويؤمن بأن

(إشعياء ٤٠:٦٦) كتبها نبي غير معروف عاش بالقرب من نهاية السبي. وخلال القرن التاسع عشر انقسم العلماء إلى قسمين منهم من يفكر بأن إشعياء هو الكاتب للسفر بجملته والأصحاحات من (٤٠-٦٦) تنسب إلي وقت السبي، وكتبها شخص غير معروف أطلق عليه إشعياء الثاني. وانتشر هذا الرأي السلبي بواسطة جورج آدم سميث عام ١٨٨٩م.

ومن الناحية الأخرى تصدى الكثيرون لهذا الرأي من علماء الكتاب المقدس الذي يؤمنون بأن إشعياء هو كاتب السفر بجملته ومنهم:

Moritz Drechsler, Carl Paul Caspari, Joseph A. Alexander ووصل تفسير سفر إشعياء إلى قمته بواسطتهم. ومن البعض الآخر من ذهب إلي أبعد من ذلك مثل برنارد دوهم Bernhard Duhm من بازل، بقوله إن الصيغة النهائية لسفر إشعياء ظهرت على يد شخص خلال القرن الأول ق.م إلا أن اكتشاف مخطوطات البحر الميت (قمران ١٩٤٧م) والتي عثر من بينها على سفر إشعياء بجملته دحضت هذا الاعتقاد، حيث يرجع تاريخ كتابة هذه المخطوطة إلى القرن الثالث والثاني قبل الميلاد.

ويعتقد دوهم B.Duhm بأن الأصحاحات من (٤٠-٥٥) يُطلق عليها إشعياء الثاني وأن الأصحاحات من (٥٦-٦٦) إشعياء الثالث، باستثناء النصوص الخاصة بالعبد المتألم، التي يعتقد أنها كتبت بواسطة شخص عاش في لبنان أو سوريا وليس في بابل وذلك عام ٥٤٠ ق.م تقريباً. كما يرى أن الأصحاحات من (٥٦-٦٦) كتبت بواسطة شخص عاش في أورشليم قبل عصر نحميا بقليل، وهذا الكاتب غير المعروف يطلق عليه إشعياء الثالث.

والأسباب التي يطرحها بعض النقديين للتفرقة بين أجزاء السفر تتلخص في:

أولاً: تباين الظروف التاريخية لجزئي السفر

من (إش ١ إلى ٣٩) كان الشعب لايزال يحيا في أرض يهوذا في ظل ملوك من نسل داود، وأورشليم هي المدينة المقدسة التي لم يسمح لها الرب بعد بالسقوط وكذلك الهيكل. ويتضح ذلك من دعوة إشعياء في هيكل الرب (إش ٦).

أما من الأصحاح الأربعين - كما يرى النقديون - فنلاحظ تغيراً شاملاً ونجد مدن يهوذا وقد صارت خربة، وتهدم الهيكل، والشعب في السبي (قارن إش ٢٦:٤٤، ١٩:٤٩، ٣:٥١) وتظهر بابل بأنها الإمبراطورية السائدة (أصحاح ٤٧)، رغم أن نهاية حكمها صار وشيكاً (٤٨، ١٤، ٢٠، ١١:٥٢-١٢) وجاء كورش كمختار الرب الذي سيقرر إعادة بناء الهيكل (٢٨:٤٤، ١:٤٥).

ثانياً: أسلوب الكتابة والتعليم اللاهوتي

يرى النقديون أيضاً أن أسلوب الكتابة يؤكد بأن الأصحاحات من (٤٠-٦٦) لم يكتبها إشعياء الأورشليمي خلال القرن الثامن ق.م. ولغة التعليم اللاهوتي الجديدة، تعطي هذه القصائد نغمة مختلفة تماماً عن تلك التي نجدها في (إشعياء ١-٣٩).

وفي (إشعياء ١-٣٩) يتحدث النبي إلى يهوذا بلغة التحذير والتوبيخ عن اقتراب يوم الدينونة، وأورشليم لازالت قائمة، ويطلب إلى الشعب أن يتوبوا وأمامهم الفرصة. لكن الجزء الثاني من إشعياء وهو من (٤٠-٦٦) يقدم شيئاً آخر. فهو يتحدث عن الدينونة والعقاب الذي وقع على أورشليم. إذ قبلت من يد الرب ضعفين عن خطاياها (إش ٢:٤٠). ويتحدث إشعياء (الثاني كما يُطلق عليه) برفق إلى أورشليم معلناً لشعب محطم بائس، بأن الرب آت لا ليدين بل ليحرر من العبودية، وليصفح ويغفر. إنها رسالة تعزية ورجاء (قارن ١:٤٣-٧، ٢٨:٤٤، ١:٤٥-٦:٤٦-١، ٢٠:٤٨، ١:٤٩-٦، ٤:٥٠-٩، ١٣:٥٢، ١٢:٥٣).

ومما سبق يخلص العلماء النقديون أو المتحررون إلى القول بأن التعاليم الواردة في (إش ٤٠-٦٦) هي كلام نبي عاش في السبي بعد إشعياء القرن الثامن، إشعياء الأورشليمي بمائتي عام تقريباً. وكتاباته توضح بأن كورش الفارس كان قائماً في الحكم وله شهرته لانتصاراته على ملوك ليديا ومنطقة الشمال من بابل عام ٥٤٦ ق.م (قارن ٤١: ٢-٣، ٢٥ عن انتصارات كورش)، ويرجح أن إشعياء الثاني في هذه الحالة يكون قد كتب عام ٥٤١ ق.م تقريباً.

وعليه فإن كلمة الأنبياء تكون قد وجهت إلى أحداث تاريخية واقعة، ولم تكن نظرتهم موجهة إلى المستقبل البعيد وتنبؤاتهم عن المستقبل كانت مرتبطة بالحاضر ومبنية على الموقف الراهن. كما لم ترد أية إشارة في (إش ٤٠-٦٦) ولو مرة واحدة بأن إشعياء الأورشليمي هو كاتب هذه الأصحاحات كما يرى هؤلاء النقديون.

أما عن الإشارات الواردة في العهد الجديد عن إشعياء النبي. فلا تدل في نظرهم على أنه الكاتب، خاصة وأن الأسفار لم تكن مقسمة إلى أصحاحات وأعداد (تقسيم الأعداد تم ما بين ٩٠٠-٩٥٠م وتقسيم النص العبري للكتب المقدسة إلى أصحاحات تم عام ١٣٣٠م).

وأكثر من ذلك فإن كاتبي العهد الجديد لم يهتموا كثيراً بالسؤال النقدي عمن هو الكاتب بل كان جل اهتمامهم هو التعليم اللاهوتي وإتمام الوعد الإلهي.

يرى بعض المفكرين بأن الجزء الثالث من السفر (إش ٥٦-٦٦) كتب بواسطة أحد تلاميذ إشعياء الثاني الذي تحدث عن نفسه بأنه أحد المسبيين (٤٠-٥٥) بينما نجد أن (إش ٥٦-٦٦) يتحدث عن الشعب وقد عاد إلى أورشليم وهو يواجه مشكلات العودة. ويرى أندرسون بأنه كانت لإشعياء مدرسة للأنبياء (تتلمذوا على يديه) امتدت لأجيال عديدة. ونذكر بأن إشعياء جمع تلاميذه حوله ليربط ويختم التعليم بتلاميذه للمستقبل حيث لا يختفي وجه الرب عن إسرائيل (إش ٨: ١٦) «صر الشهادة وأختم الشريعة بتلاميذي»... ويتضح من ذلك أن إشعياء النبي أودع إعلاناته للحفظ مع الجماعة النبوية الأمينة، والتي حفظتها جيداً وأعادت صياغتها في ضوء التعاليم الأخيرة لإشعياء. وبعد موته سلمت إلى أحد تلاميذه، أما عن تشارلز توري C.C.Torrey of Yale فيري في كتابه الذي ظهر عام ١٩٢٨م أن الأصحاحات من (٤٠-٦٦) تمثل وحدة كتبها شخص عاش في أورشليم خلال القرن السادس قبل الميلاد.

ويرى البعض الآخر من الباحثين أن الجزء الثالث من السفر (٥٦-٦٦) يمثل غموضاً شديداً وصعوبة في تاريخ مادته، فمثلاً نجد في (٥٦: ١-٨) إشارة عن الهيكل القائم ونظام العبادة، وتقديم المحرقات وحفظ السبت، الأمر الذي يشير إلى زمن ما قبل السبي. والإشارة إلى وجود ملك في (إش ٥٧: ٩) والأصحاحات من (٦٠-٦٢) تبين أن المسبيين لم يعودوا بعد إلى فلسطين، لكن قد اقترب وقت عودتهم. كما وردت الإشارة في (٦٦: ١-٢) عن المسبين العائدين، وقد بدأوا في بناء الهيكل الذي تم عام ٥٢٠ ق.م.

وبهذا يمكن القول بأن الجزء الثالث من إشعياء والذي أطلق عليه إشعياء الثالث من (٥٦: ٦٦) تضمن مواداً يرجع تاريخها - في رأي هؤلاء الباحثين - إلى أزمنة ما قبل السبي وإلى زمان السبي وما بعد السبي في الوقت نفسه.

أما عن بريفرد تشيلدز Brevard Childs العالم والباحث المدقق والمعاصر، فيرى بأن مرجع التشتيت في الفكر، وعدم الأخذ بوحدة السفر، يعود إلى تناول العلماء والباحثين لسفر إشعياء، على أنه سفر تاريخي وليس سفر نبوة، مما أدى بهم إلى تفتيت السفر بالصورة التي شاهدناها سابقاً، غير أن السفر يمثل وحدة متكاملة. ومادة السفر - خاصة موضوع الخلاف (٤٠-٦٦) أبعد من أن تكون قصة تاريخية، بل هي شهادة أمينة للوعد الإلهي، وإتمام خلاص الله لشعبه في كل عصر وكل مكان بواسطة إشعياء نبي القرن الثامن قبل الميلاد. ورسالة النبي رسالة وعد موجهة إلى المستقبل كما أن رسالة السفر تتعلق بخطة الله الفدائية في التاريخ وإعلان الغفران الذي يشمل إسرائيل الخاطيء

التائب وكل شعب تائب في كل عصر.

إن سفر إشعياء يُعد رسالة ممتدة لخطة الله لشعبه من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة في كل العصور (قارن ٤٠: ١٠-١١، ٥٦: ٣-٧، ٦٦: ١٩-٢١)[1].

ويرى إدوارد يونج E.Young أن كاتب الجزء الثاني من إشعياء (٤٠-٦٦) لا يمكن أن يكون قد عاش زمن السبي كما عبر العلماء النقديون آنفاً - لأن كاتب هذه الأصحاحات (٤٠-٦٦) لابد وأنه عاش طوال حياته في أرض فلسطين. لأنه لا يظهر دراية أو معرفة بأرض بابل، أو ديانتها حسبما نتوقع من شخص أقام بين المسبيين. غير أن كاتب هذا الجزء يتحدث عن أورشليم وجبال فلسطين. ويذكر بعض الأشجار التي تنمو في فلسطين مثل الأرز والسنديان والبلوط (إش٤٤: ١٤، ٤١: ١٩) وفي (٤٣: ١٤) يتحدث عن أناس ليسوا في بابل وفي (٤١: ٩) يتحدث عن إسرائيل كنسل إبراهيم الذي أخذه من أطراف الأرض. والتعبير من أطراف الأرض، تعبير مألوف لكاتب يعيش في أرض الموعد كما يرى يونج E.Young (قارن إش ٤٥: ٢٢، ٤٦: ١١). كما توجد النصوص العديدة الأخرى التي تتناسب وزمن السبي. فقد وردت الإشارة في (٦٢: ٦) عن أسوار أورشليم القائمة. وفي (إش ٤٠: ٩) عن مدن يهوذا وصهيون الكائنة (قارن أيضاً ٤٣: ٦، ٤٨: ١، ٥). بالإضافة إلى أن إشعياء النبي كتب هذه الأصحاحات بروح النبوة والتطلع إلى خلاص الرب لشعبه، وتخليصهم بقوة رفيعة وذراع ممدودة، والعودة بهم من السبي مستقبلاً إلى أرضهم التي تفيض لبناً وعسلاً. كما أن هناك تشابهاً واضحاً وجلياً في الأسلوب والتعبير بين جزئي السفر (قارن ٤٠: ٥ مع ١: ٢٠، ٤٣: ١٣ مع ١٤: ٢٧، ٦٥: ٢٥ مع ١١: ٩).

شهادة العهد الجديد لوحدة السفر

وردت الإشارات والاقتباسات العديدة في العهد الجديد من سفر إشعياء، أكثر من أي سفر آخر. في إنجيل متى ولوقا ويوحنا وسفر أعمال الرسل ورسالة بولس الرسول إلى أهل رومية. مما لا يترك مجالاً للشك من خلال فهم العهد الجديد بأن إشعياء نبي القرن الثامن وهو كاتب كل السفر (الستة والستين أصحاحاً) وأمثلة ذلك:

أ- جاء في إنجيل يوحنا (١٢: ٣٧-٣٨) «ومع أنه (أي يسوع) كان قد صنع آيات هذا عددها لم يؤمنوا به، ليتم قول إشعياء النبي الذي قاله...» (قارن إش ٥٣: ١) «يارب من صدق خبرنا ولمن استعلنت ذراع الرب»، وتبعه بذلك شرح في (عدد ٣٩ من يوحنا ١٢) لماذا لم يؤمن به الشعب؟ «لأن إشعياء قال أيضاً قد أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويرجعوا فاشفيهم». وهذه الكلمات مقتبسة من (إشعياء ٦: ٩) وتلت ذلك كلمات هامة ورائعة في (عدد ٤١ من يوحنا ١٢) «قال إشعياء هذا حين رأى مجده وتكلم عنه».

نخلص مما سبق أن يوحنا (١٢: ٣٧-٤١) به اقتباسات من (إشعياء ٥٣) وإشعياء الأصحاح السادس منسوبة إلى شخص إشعياء النبي ككاتب لها بالروح القدس.

ب- في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (٩: ٢٧-٣٣) يستخدم الرسول بولس وبكثرة أقوالاً من نبوة إشعياء. ففي (عدد ٢٧ من رومية ٩) يذكر: «وإشعياء يصرخ من جهة إسرائيل». ويقصد الرسول بولس من هذه الكلمات أن النبي إشعياء نفسه الذي يعلن رسالته النبوية كان يصرخ في شعب إسرائيل كما أنه يتبع ذلك اقتباس من (إشعياء ١٠) واقتباس آخر من (إش ١: ٩) يستهله بكلمات «وكما سبق إشعياء فقال» (رومية ٩: ٢٩). وفي (عدد ٣٢ من رومية ٩) يستخدم الرسول بولس لغة إشعياء (٨: ١٤). وفي (عدد ٣٣ أيضاً في رومية ٩) يقتبس (إش ٢٨: ١٦).

ج- في رسالة رومية (١٠: ١٦-٢١) يقدم الرسول هذا الجزء بالكلمات «كما هو مكتوب» (١٥أ). ويتبعه

(I) B.S. Childs, Introduction to the Old Testament as Scripture, (pp.235-339)

 

باقتباس من (إشعياء ٥٠:٧أ). وفي (العدد ١٦ من رومية ١٠) وردت الكلمات : «لأن إشعياء يقول...» ثم اقتباس من (إش ٥٥:١) ثم تأتي العبارة «ثم يتجاسر إشعياء ويقول»، ثم اقتباس من (إش ٦٥:١) ثم في (عدد ٢١ من رومية ١٠) اقتباس آخر من (إشعياء ٦٥:٢).

مما سبق يتضح لعلماء الكتاب المحافظين، مدى الترابط الوثيق بين أجزاء السفر المختلفة، وأن إشعياء بن آموص هو الذي كتب سفره ما بين عام ٧٤١-٧٠١ ق.م تقريباً.

النبي إشعياء ودعوته

كان إشعياء النبي ابناً لآموص. وجاء في التقليد اليهودي بأنه جاء من أسرة أرستقراطية عريقة، تمتد أصولها إلى العائلة الملكية كابن عم الملك عزيا أو حفيده. وكان رجلاً روحياً عُرف عنه أنه سفير الله العلي. يتحدث في حزم وقوة وسلطان واضح مثل إرميا وحزقيال وآخرين. وربما كان إشعياء كاهناً في نفس الوقت حيث كان في الهيكل حين رأى رؤياه، وتلقى دعوته من الرب الجالس على كرسي عالٍ وأذياله تملأ الهيكل (إش ٦:١-٤) حتى يتمكن من دعوة رئيس الكهنة أوريا الكاهن كأحد الشاهدين الأمينين من قبل الرب على رسالته (٨:٢، قارن ٢مل ١٦:١١). ويوجه النبي بسلطان كامل اتهامه وشجبه لأعمال بعض الكهنة والأنبياء، التي لا تختلف كثيراً عن القادة العاديين (إش ٢٨:٧، قارن ٣:٢، ٩:١٥، ٢٩:١٠). وواضح إن إشعياء كان على علم بأسلوب حياة الطبقات الحاكمة، وينتقدهم بشدة لفشلهم في إحقاق الحق ورفع الظلم عن الفقير والبائس، وعلى حياة المجون والاستهتار (إش ٣:١١-١٦، ٥:٧-٨، ٢٨:٧-٨، ٥:٢٣) والحياة غير الدينية، وربما كان من المقربين إلى الملك بل ربما كان عضواً استشارياً (٧:١-١٧، قارن ١٠:٢٤-٢٧، ١٤:٢٤-٣٢).

غير أن إشعياء لم يكن في معزل عن الحياة الريفية وأحوالها. فقد لاحظ الحيوانات وهي راجعة إلى الإسطبل وإلى الحظائر (١:٣، ٨، ٢١:١١-١٢) والكروم (٥:١-١٠) والمحاصيل الزراعية (٢٨:٢، ٢٩، ٢٩:٥).

وتعد دعوة إشعياء ليكون رسول الملك الأعظم (إش ٦) من أهم النصوص في الكتابات النبوية.

«وفي سنة وفاة عزيا الملك» في وقت عصيب تلقى النبي دعوته حيث كان عزيا يمثل قوة فائقة للشعب. وكان الملك في القديم يمثل كل شيء بالنسبة للشعب. بل كان بمثابة روح الشعب، ومن الملك تخرج البركة والقوة إلى الشعب[1].

لقد كان موت عزيا حدثاً لمس حياة الشعب كله، وبصفة خاصة لضعف ابنه يوثام، الذي تولى من بعده وظلال أشور تطل بشرها. وفي لحظة كهذه يقول إشعياء النبي:

«رأيت السيد» رأيت الملك، وعلى الشعب أن يدرك هويته، إنه ملك متوج على العالم، رب الجنود (رب الجيوش السماوية) (قارن قض ٥:٢٠). وكان مكان رؤيا إشعياء في الهيكل، هيكل سليمان، حيث رأى إشعياء السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع. وكان الجميع يهتفون قدوس قدوس قدوس مجده ملء كل الأرض. إنها ترنيمة التمجيد المسموعة إلى اليوم ترنيمة تنصيب الله الجالس على العرش السماوي الذي ملأ مجده كل الأرض، على العالم بجملته – اتزر الرب بالجلال، سيد كل الخلائق والقابض على مصائر الشعوب – رب الكون وصانع التاريخ (قارن مزامير ٤٧، ٩٣، ٩٦-٩٩).

رب الجنود مجده ملء كل الأرض (٦:٣)

ليس الرب ملكاً على إسرائيل ويهوذا فقط بل هو ملك على كل الأرض، ملك فوق الجميع. السرافيم واقفون فوقه

(1) Pedersen Johannes, Isreal: Its Life and Culture, Vol I, p.275



لكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه من مجد الرب العظيم، وباثنين يغطي رجليه من قداسة الله، وباثنين يطير لينجز مهامه المطلوبة منه. ويصور النبي ميخا صورة المجلس السماوي متمثلة في رؤياه «رأيت الرب جالساً على كرسيه وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره» (١مل ٢٢:١٩) قارن (مزامير ٨٢، ٣:٩٥، ١٠٣:١٩-٢٢، ٢:١٤٨) «ملك عظيم على كل الآلهة».

وسمع إشعياء صوت السيد الرب قائلاً بصيغة الجمع: «من أُرسل ومن يذهب من أجلنا» (٨:٦). إن الرب يتحدث هنا إلى السرافيم وعنهم. ويدخل إشعياء في حديث المجلس السماوي قائلاً «هأنذا أرسلني» ويعضده الرب بالقوة «اذهب» ومن هنا يدرك النبي إنه رسول الرب الممجد. والمتوج ملكاً فوق الجميع بعد مؤازرة النبي من المجلس السماوي (قارن ٢٣:١٨،٢٢).

ويل لي إني هلكت... لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود

لقد سمح لإشعياء أن يرى ما أخفي عن عيني موسى (خروج ٣٣:٢٠) ويردد قائلاً: «ويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين» (عدد ٥). إنه شعور بقداسة الله التي وضحت في (سيناء) قديماً (خروج١٩). إنه الله لا إنسان (هوشع ٩:١١) وفوق كل تصور إنسان (قارن خروج ٣٢ عن العجل الذهبي). إنه متعال في البر وفي محضره لا نجس أو أثيم أو مذنب أو عابد وثن يستطيع أن يحيا، لذلك اضطرب إشعياء واعترف بذاته في محضر الله بعد أن استمع إلى أنشودة التسبيح من السرافيم (ملائكة التطهير) (إش ٦:٤-٩) قائلاً: ويل لي إني هلكت. فطار إليه واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فم النبي قائلاً له «إن هذه قد مست شفتيك فانتُزع إثمك وكُفر عن خطيتك» (٧:٦).

إنه يحتاج إلى التطهير قبل أن يقوم برسالته، قبل أن يكون إشعياء رسول العلي القدوس. وقد استطاع بعد التطهير أن يجيب بملء الفم : «هأنذا أرسلني».

ورسالة النبي من الرب أتت إليه: «اذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولا تفهموا وأبصروا إبصاراً ولا تعرفوا» إنها إرادتهم ورغبتهم الشخصية المحضة كما يصورها لنا أحد العلماء. ولعل النبي إشعياء أدرك المعنى الحقيقي لهذه الكلمات: «غلظ قلب هذا الشعب وثقل أذنيه واطمس عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفى» (عدد ١٠)، إنه بإعلان النبي عن رحمة الله الغنية ومحبته العميقة التي تحيط بالشعب، ودعوته المستمرة والمتكررة لهم بالتوبة والرجوع إلى الرب يجعل الشعب أكثر صلابة وقسوة وعناداً. لأن النور الوهاج يصيب العيون الرمداء بالعمي والصوت المتكرر المرتفع يفقد السمع. إنه الرب الرحيم والرؤوف غافر الإثم وصافح عن الذنب، لا يحفظ إلى الأبد غضبه وهو يسر بالرأفة (قارن خروج ٣٤:٦-٧، يونان ٤:٢، ميخا ٧:١٨-١٩). إنه الإله المحب الذي يشهد عليهم السموات والأرض قائلاً: «اسمعي أيتها السموات وأصغي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم. ربيت بنين ونشأتهم. أما هم فعصوا عليّ. الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه. أما إسرائيل فلا يعرف. شعبي لا يفهم» (١:٢-٣). «ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين. تركوا الرب واستهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء» (١:٤).

ويتساءل النبي إشعياء: «إلى متى أيها السيد». ويجيبه الرب: «إلى أن تصير المدن خربة بلا ساكن والبيوت بلا إنسان وتخرب الأرض... ويكثر الخراب في وسط الأرض» (٦:١١-١٣). ولا يبقى فيها عشر، إلا ويصير للخراب أيضاً.

ولكن يوجد رجاء. فإن الظلام سيتبدد بقبس من النور السماوي الذي سينعكس من البقية القليلة الباقية. كالبطمة

والبلوطة التي وإن قُطعت فلها ساق يكون زرعاً مقدساً. ولسوف تتجدد الحياة المقدسة في الشعب.

إن لرب الجنود يوماً (٢:٦-٢١)

في الوقت الذي رأى فيه إشعياء السيد الرب، ومجده الذي يملأ الأرض، وسمع ترنيمة السرافيم بإعلان قداسته، يرى النبي الشعب في ضلاله وبُعده عن نبع سعادته وقد ساد عليهم الظلام فيدعوهم قائلاً: «هلم فنسلك في نور الرب». ولكن بلا جدوى : «لقد امتلأت أرضهم فضة وذهباً. ولا نهاية لكنوزهم وامتلات أرضهم أوثاناً. إنهم يسجدون لأوثانهم عمل أيديهم وصنعة أصابعهم» (٢:٧-٨) فيعلن الحقيقة المؤكدة، بأن لرب الجنود يوماً على كل مُتعظم، على كل مُرتفع فيوضع. ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم. فيُخفض تشامخ الإنسان، وتوضع رفعة الإنسان وتزول الأوثان بتمامها. إن كنوز الإنسان ليست شراً في ذاتها، لكنها تصبح منبعاً للشرور وقت أن يثق فيها الإنسان وتصير موضوع اهتمامه. والوثن بالنسبة للإنسان هنا هو الثقة في أي شيء غير الله خالقه وفاديه. في ذلك اليوم سيطرح الإنسان وأوثانه الفضية، وأوثانه الذهبية التي عملها له للسجود. ويسمو الرب وحده ويتمجد في ذلك اليوم. إنه يوم ظلام لا نور لكل عابد وثن يبحث عن سعادته بعيداً عن إلهه السرمدي.

لقد انتظر الرب حقاً في بيت إسرائيل ورجال يهوذا فإذا سفك دم، وعدلاً فإذا صراخ (٥:٧). لذلك يشبههم إشعياء في أنشودته بالكرم الذي كان لذلك الحبيب على أكمة خصبة وبذل كل جهده لإصلاحه، نقبه ونقى حجارته وغرسه وبني برجاً في وسطه، وأحضر معصرة فانتظر أن يصنع عنباً صنع عنباً ردياً ويتساءل الكرام: «ماذا يُصنع لكرمي وأنا لم أصنعه له. لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً ردياً. الآن أعرفكم ماذا أصنع بكرمي. أنزع سياجه فيصير للرعي. أهدم جدرانه فيصير للدوس، وأجعله خراباً لا يقضب ولا ينقب فيطلع شوك وحسك، وأوصي الغيم أن لا يمطر عليه مطراً».

ثم يذكر أنه على الشعب أن يمثل للمحاكمة أمام قاضيهم (١:١٨-٢٠، ٣:١٣-١٥) بعد أن تفشى المرض واستفحل في أجسامهم (١:٤-٦) كما أنه في (٥:٨-٢٤) يتحدث بالويلات على الظالمين وغير الأبرار.

إن قصد الرب لهم ليس للتدمير، بل أن يستعيد الإنسان صحته، ويصير إسرائيل شعباً مقدساً يخدمون ملكهم، مثل إشعياء الذي غُفر إثمه وكُفِّر عن خطيته، وصار طاهراً. لقد طلب الرب أن يطهر الشعب كما بنار من خلال الألم الرهيب لتصبح أورشليم المدينة الجديدة مدينة البر (العدل) لتصبح القرية الأمينة (١:٢٤-٢٦ قارن الأعداد ٢١:٢٣).

التحالف ضد يهوذا

لقد تحالف أرام وأفرايم (سوريا وملكها رصين، وإسرائيل وملكها فقح بن رمليا) ضد يهوذا وملكها آحاز.

بالعودة إلى الأصحاحين السابع والثامن أي بعد سنين قليلة من دعوة إشعياء ولدت زوجته المشار إليها بالنبية (٨:٣) ابنا يسمى شآر ياشوب (٧:٣). ومثلما أعطى هوشع النبي أسماء رمزية لأولاده - هكذا ابن إشعياء صار آية حية من الرب - علامة وتأكيداً واضحاً لرسالة النبي إذ يُعني بالاسم «البقية ستعود» وفي الاسم تذكره بضرورة وحتمية العودة بالتوبة إلى الله (٦:١١).

فمن جانب يعني بالاسم معنى سلبياً أي أن البقية فقط ستعود (ترجع إلى الرب) والجانب الآخر الإيجابي هو أن البقية سترجع (قارن ١٠:٢١-٢٣) وهذا واضح من الآيات الختامية في الأصحاح السادس التي تتضمن قضاء ورجاء.

إن الأصحاح (٧-٨) يتحدث عن الأزمة الآرامية - الأفرايمية (سوريا وإسرائيل) - ضد يهوذا والتي وقعت عام



٧٣٣-٧٣٢ ق.م حينما تولى آحاز في يهوذا بعد موت أبيه عزيا (٧٣٥-٧١٥ق.م) وواجه الملك الشاب آحاز متاعب سياسية أكبر منه وفوق مستوى طاقته، ورثها عن أبيه. فقد اتحد ملكا أرام وأفرايم (الملك رصين والملك فقح بن رمليا) على مهاجمة يهوذا ليعينوا عليها ملكاً آخر بعيداً عن نسل داود بدلاً من آحاز، حتى يكون لعبة في أيديهم (٧:٦). ومن ثم فقد ارتعب آحاز جداً. وامتلأ قلبه وقلوب الشعب معه بالخوف، واهتزوا جداً كما تهتز الأشجار أمام الريح. وأقدم آحاز على تقديم ابنه محرقة في النار حسب أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل (٢مل ٣:١٦). ولعله أقدم على هذا العمل الوثني البغيض والمكروه من الرب، ظناً منه أنه ينال رضى الله، حتى يمتنع عن مدينة أورشليم الغضب الإلهي الذي وقع عليها (قارن عمل الملك الموآبي ٢مل٣:٢٦-٢٧). وكان الموقف عصيباً وأليماً. وكقائد مسئول كان على آحاز الملك أن يختار بين قبول الهزيمة على أيدي الغزاة أو يطلب عوناً من الخارج.

في هذه الحالة أتت رسالة النبي إشعياء إليه بسيطة الفهم وواضحة. «توكل على الرب» واهدأ بالاً «ولا تنزعج» بمعنى أن يثق بالكامل في الرب ويمتلأ قلبه بالسلام، وألا يقلق على غزو أورشليم، لأنه فوق كل تصور سياسي أو حصون قوية توجد سيادة الله العامل بقوة. إنه صانع التاريخ. لأن رأس آرام دمشق ورأس دمشق رصين الملك ورأس أفرايم السامرة ورأس السامرة فقح بن رمليا ملكها (٧:٨-٩)، إنهم أناس وليسوا آلهة وهدفهم هو تمليك شخص آخر ليكون أداة طيعة في أيديهم وهو ابن طبئيل (إش ٧:٦) ويرجح بأنه كان أرامياً. «إن هذا لن يتم»، ولا يقوم لأن الرب مرتبط بوعد - بعهد رحمة - مع داود ونسله من بعده، ويؤكد إشعياء بأنه «إن لم تؤمنوا فلا تأمنوا». ليكن لكم الإيمان الكامل الواثق. ففي الرب وبالاتكال عليه يتم الخلاص (قارن مزمور ٤٦:٨-١٠). دعك أيها الملك آحاز من كل تحالف بشري، وارفع وجهك إلى القدوس المجد. إنه الملك الحقيقي (قارن إشعياء ٢٨:١٦، ٣٠:١٥). وإن لم يكن لك الإيمان الثابت في الرب فلا ثبات لكم أمام بني البشر.

وبهذا أراد إشعياء النبي من الملك آحاز أن يعدل عن اللجوء إلى أشور للنجاة من الحصار على يهوذا. ويطلب إلى الرب إلهه. لكنه لم يستطع ذلك، وكان على إشعياء أن يقدم لآحاز آية تأكيداً لعناية الرب بشعبه وضرورة اللجوء إليه وحده ثم عاد الرب فكلم آحاز قائلاً (٧:١١-١٤).

أطلب لنفسك آية من الرب إلهك

فقال آحاز لا أطلب ولا أجرب الرب.

ولكن يعطيكم السيد نفسه آية (٧:١٤)

ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل.

اقتبس البشير متى هذه الكلمات كنبوة عن ميلاد يسوع المسيح العذراوي (مت ١:٢٣)، وهذه النبوة تحققت في يسوع المسيح، وهذا هو البعد النبوي.

أما عن البعد التاريخي أو الخلفية التاريخية فتتمثل في الكلمات الواردة في العددين التاليين (١٥-١٦ من الأصحاح السابع) «زبداً وعسلاً يأكل متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير، لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشر ويختار الخير، تخلى الأرض التي أنت خاش من مليكها». إذ كان آحاز يخشى ملكي أرام وأفرايم اللذين تحالفا ضده (رصين وفقح بن رمليا). أي أنه قبل أن يبلغ الصبي سن الثانية أو الثالثة من العمر، السن التي يمكنه أن يتناول فيها زبداً وعسلاً. الأمر الذي أكده إشعياء في (٨:٤) قائلاً: «قبل أن يعرف الصبي أن يدعو يا أبي ويا أمي تحمل ثروة دمشق وغنيمة السامرة قدام ملك أشور» فليس هناك من سبب إذاً حتى يرجف الملك آحاز من تهديدات هذين الملكين اللذين جاء عنهما بأنهما مجرد «شعلتين مدخنتين» (٧:٤).

بالإضافة إلى أن النبي إشعياء يستخدم آداة التعريف (الـ) العذراء הָעַלְמָה كما لو أنه يشير إلى إمرأة بعينها معروفة لآحاز حيث تعني الكلمة العبرية (إمرأة شابة)، يمكن أن تكون متزوجة أو عذراء (قارن تك ٢٤:٤٣، خروج ٢:٨، أمثال ٣٠:١٩) وبهذا يمكن احتواء التفسير التاريخي والنبوي المشار عنه في إنجيل متى (١:٢٣).

والكلمة العبرية الدقيقة لعذراء فهي بتوله בְּתוּלָה أما الترجمة السبعينية (الترجمة اليونانية للعهد القديم من العبرية) والتي ظهرت في أواخر القرن الثالث ق.م فاستخدمت الكلمة برثينوس Parthenos والتي تعني بتوله (٧:١٤، قارن أيضاً تك ٢٤:٤٣، ٢٤:٣).

وبهذا تكون الكلمة عذراء مأخوذة مباشرة من السبعينية.

وتدعو اسمه عمانوئيل

ويعني الاسم في اللغة العبرية «الله معنا» بمعني لا تخف ولا يضعف قلبك من أجل ذنبي هاتين الشعلتين المدخنتين بحمو غضب رصين وآرام وابن رمليا لأن أرام تآمرت عليك بشر قائلة: نصعد على يهوذا ونقوضها ونُملك في وسطها ملكاً آخر، هكذا يقول الرب لن يتم هذا (قارن إش ٧:٤-٧). بل يتقدم النبي إشعياء إلى ما هو أعمق وأبعد من ذلك، وتحد لقوى الظلم، في ثقة بالغة من أمانة الرب في الوعد بالأمان والطمان قائلاً: «هيجوا أيها الشعوب وانكسروا وأصغي يا جميع أقاصي الأرض احتزموا وانكسروا تشاوروا مشورة فتبطل. تكلموا كلمة فلا تقوم. لأن الله معنا» (عمانوئيل). (إش ٨:٩-١٠) إن حضور الله في وسطهم سيكون آية في ذاتها، لإعلان مجد الرب المنقذ لهم من النار الممحصة، إلى فجر يوم جديد. سيحيا عمانوئيل معهم حياة البرية هذه بكل معانيها.

والبرية في مفهوم هوشع النبي لها معنيان: المعنى الأول: إن البرية للتهذيب والتأديب والتقويم. والمعنى الثاني: تكون فيه البرية فرصة لبداية جديدة وتصبح مكاناً لإعادة التفكير وفتح باب للرجاء (قارن هوشع ٢:١٤-٢٣). أما عن الطعام، الزبد والعسل فهو مرتبط بالأرض التي تفيض بالخيرات وآية بمستقبل واعد، يكمن في الجانب الآخر من الأيام المظلمة الآتية، عندما يأتي ملك أشور تغلث فلاسر، ويسبي سبط نفتالي ويستولى على المدن الرئيسية الهامة في إسرائيل (٢مل ١٥:٢٩) عام ٧٣٢ ق.م تقريباً.

وسرعان ما يتبدد هذا الظلام، وينقشع بنور عظيم «لأن الشعب الساكن في الظلمة أبصر نوراً عظيماً والجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور». ويعظم فرح هذا الشعب كالفرح في الحصاد كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة، لأن النير قد تدحرج، وانكسر عصا وقضيب المسخرين. ويُرجع النبي مصدر هذا النور قائلاً: «لأنه يُولد لنا ولد ونُعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويُدعى اسمهُ عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام» (إش ٩:٦، قارن مت ٤:١٥-١٦).

هذا الشعب رذل مياه شيلوه الجارية بسكوت وسُرَّ برصين وابن رمليا (٨:٦)

رغم كلمات التطمين والرجاء للشعب من الرب على فم النبي إشعياء، تجد الشعب وقد رذل مياه شيلوه التي تسير وتجري رقراقة وبهدوء، وسر برصين أرام وابن رمليا. ويحذر الرب مراراً من الكارثة التي ستحل بالتحالف بينهما. وجاء في (الأعداد ١-٥ من الأصحاح ٨) عن ميلاد الابن الثاني لإشعياء والذي دُعي مهيرشلال حاش بز كآية لآحاز الملك للإطمئنان والذي يُعني اسمه: (مُسرع إلى السلب مقدم إلى النهب)، إشارة إلى قدوم ملك أشور على المتحالفين رصين (ملك أرام) وابن رمليا (ملك إسرائيل). لأنه «قبل أن يعرف الصبي أن يدعو يا أبي ويا أمي تحمل ثروة دمشق، وغنيمة السامرة قدام ملك أشور» (٨:٤).

وقد طلب الرب من إشعياء، أن يكتب بقلم إنسان على لوح كبير تذكاراً لابنه مهيرشلال حاش بز. هذه الكلمات

الواعدة بالخلاص والتمسك بالرب وخلاصه من المهاجمين. كما وثقت الكلمات بشاهدين أمينين، هما أوريا الكاهن وزكريا بن برخيا، حتى يقرأه كل إنسان مستقبلاً. ويذكر وعد الرب الأمين وآياته، شهادة لهم للتعليم والتهذيب، والتمسك به وليس آخر (قارن أعداد ١-٢). غير أن هذه الكلمات والآيات (أولاد إشعياء بأسمائهم المعتية ١٨:٨) لم يكن لها التأثير الفعال. لأن آحاز لم يكن له الإيمان الذي طلبه النبي منه، بل كان آحاز عقلانياً في مواجهة الأزمة السياسية. وفكر بعقله في الدفاع عن نفسه. بل إن ملك أدوم انتهز هذا المأزق، واسترد منه ميناء أيله، وكان قد كسبها الملك عزيا قبلاً (٢مل ٦:١٦) وطلب آحاز عون ملك أشور، وأفرغ كنوز الهيكل، وقصر الملك طمعاً في رضاه، وكان تغلث فلاسر فرحاً جداً بذلك، وجاء تلبية لطلب آحاز وحطم دمشق، وقتل ملكها رصين. وقسم سوريا إلى مقاطعات تابعة للإمبراطورية الأشورية. كما انتزع الجزء الأكبر من مملكة إسرائيل، وأخذ جمعاً كثيراً من الشعب وسباهم إلى أشور بعد قتله بن رمليا ملكهم (قارن ٢مل ٢٩:١٥، إش ١:٩) وبدت إسرائيل جزءاً صغيراً وبسيطاً من تخوم يزرعيل إلى تخوم يهوذا.

وذهب آحاز إلى دمشق ليقدم ولاءه وتقديره لتغلث فلاسر ويهنئه على انتصاراته، وبينما كان آحاز ملك يهوذا هناك حصل على شبه المذبح الأشوري وشكله حسب كل صناعته، وأرسله إلى أوريا الكاهن ليقيم مثله في هيكل الرب (٢مل ١٦: ١٠-١٨) وفي وقت كهذا لم يكن ممكناً الفصل بين الدين والسياسة، وامتثل أوريا لطلب الملك وصارت يهوذا خاضعة بل أداة في يد أشور. وما ورد في (١أخ ٢٨: ١٦-٢٧) يوضح كم عانت مملكة يهوذا في ظل هذا الملك الضعيف الهزيل.

وبالنسبة لإشعياء: كان تصرف آحاز هذا دليلاً على ضعف إيمانه، والذي دفعت يهوذا ثمنه غالياً جداً. لاتباعهم خطوات ملكهم الهزيل آحاز. وطالما حذرهم إشعياء قبلاً واستنكر رفضهم مياه شيلوه الجارية بسكوت، وثقتهم في نهر الفرات الصاخب الذي لأشور (٦:٨) ويرجح البعض أن مياه شلوه هذه هي قناة البركة الصغيرة التي تجري مياهها من نهر جيحون إلى داخل سور مدينة أورشليم حيث ذهب آحاز إليها مرتجفاً وفزعاً. أو لعله يمنع الغزاة من قطع مياه البركة عن مدينة أورشليم.

فقال الرب لإشعياء «أخرج لملاقاة آحاز... وقل له احترز واهدأ. لا تخف ولا يضعف قلبك من جراء تهديد هاتين الشعلتين المدخنتين». بمعنى أن رصين وفقح لا يشكلان خطراً على الإطلاق، وليكن لك الإيمان الواثق الهادي الساكن في الله الذي ملكوته أقوى وأبقى من أعظم الإمبراطوريات، كما نبه النبي إشعياء الملك آحاز بالحقيقة العظمى والهامة «إن لم يكن لهم الإيمان في الله خالق السموات والأرض فلا أمان لهم» (إش ٩:٧). وقد رأى إشعياء بعيني النبوة ملك أشور الذي أشير إليه بمياه نهر الفرات القوية والذي يغطي كل الأرض ويدمر ليس فقط أرام وإسرائيل، بل أيضاً يتدفق إلى يهوذا ويكون بسط جناحيه ملء عرض بلادك يا عمانوئيل(قارن ٨:٨).

إن كلمات إشعياء الموقظة للإيمان والرفعة لكل نفس متعبة وقعت على آذان صماء. وآياته المثبتة لكلماته، حتى ينجلي الحق ويبدو بيناً مرئياً، بانت بدورها لأناس عميان.

وقد ترتب على ذلك أن النبي ابتعد عن مواطنيه هؤلاء أصحاب الآذان الصماء والعيون غير المبصرة بأمر الرب له «وبشدة اليد». كما أنذره بأن لا يسلك في طريق هذا الشعب (١١:٨) وأكثر من ذلك أمر الرب إشعياء قائلاً: «صر الشهادة واختم الشريعة بتلاميذي» (١٦:٨). فلا وقت للحديث في هذا الأمر مرة أخرى، ولا مجال للمناقشة فيه حتى يتم ويتحقق كلام الرب هذا، ويدرك الشعب أن فم الرب تكلم، لقد انتهى الوقت.

وكانت كلمات النبي لتلاميذه أن يخشوا الرب وحده، ويقدسوه لأنه قوتهم وأن لا يرهبوا أو يخافوا مكايد الأشرار. وأخذ إشعياء موقعه بين هذه الجماعة الأمينة التي ستكون نواة لإسرائيل الجديد، بإيمان وصبر (١٧:٨) داعياً إياهم

بالتمسك بالشريعة واللهج فيها دائماً حتى يتبدد كل ظلام في حياتهم (٨: ٢٠).

وربط الشهادة مع تلاميذ إشعياء ربما قصد به سفر الشهادة (٦:١-٩:٧) والتي تضمنت ليس فقط مذكرات النبي المبكرة بل أيضاً كما رأينا الوعد العظيم والهام بمجيء الملك من نسل داود وانبثاق فجر جديد.

حزقيا رجل الإصلاح يتولى الحكم بعد آحاز أبيه

يعد تولي حزقيا الحكم عام ٧١٥ ق.م كما يرى العلماء نقطة تحول في مملكة يهوذا بعد أبيه آحاز، الذي كان ملكاً ضعيفاً بل أداة في يد الأشوريين. فقد كان حزقيا قائداً مقداماً، أدت سياسته إلى إصلاح ديني كبير، وإلى إعادة بناء أمنه ليواجه قوة أشور، وليتحرر ولم سيطرتها على بلاده. وجاء في (٢مل ١٨) تقييم شامل لحكمه ومصدر قوته بالقول: «على الرب إله إسرائيل أتكل وبعده لم يكن مثله في جميع ملوك يهوذا، ولا في الذين كانوا قبله، والتصق بالرب ولم يحد عنه، بل حفظ وصاياه التي أمر بها الرب موسى. وكان الرب معه، حيثما كان يخرج كان ينجح، وعصى على ملك أشور ولم يتعبد له» (أعداد ٥-٧).

ومن أعظم إنجازات حزقيا: الإصلاح الديني الكبير، الذي أدى إلى هدم المرتفعات مراكز العبادة الكنعانية الشهيرة والتي كانت مثار تهديد لإيمان إسرائيل من البدء، كما كسر التماثيل وقطع السواري (رموز خشبية للإلاهة عشتاورث). ولم يكتف الملك حزقيا بذلك بل ذهب إلى هيكل أورشليم، وسحق الحية النحاسية التي عملها موسى (عدد ٢١:٤-٩) والتي دعاها الشعب باسم نحشتان وعبدوها طوال قرون عديدة، بدلاً من أن يتخذوها رمزاً يذكرهم بمحبة الله وافتقاده لهم برحمته.

كما أزال حزقيا من هيكل الرب كل ما يتعلق بالعبادة الأشورية التي أدخلها آحاز أبيه (قارن ٢مل ١٦:١٠-١٦) وأعلن استقلاله عن أشور، ونجح في ذلك حيث كان سرجون ملك أشور منهمكاً في حربه على جبال شمال ما بين النهرين.

ومن مجهودات حزقيا السياسية بناء قناة وبركة سلوام في نهاية حكمه، عندما كانت المعاناة السياسية على أشدها (٢مل ٢٠:٢٠، قارن ٢أخ ٣٢:٣٠)، وهذه القناة التي حفرها الملك حزقيا أنقذت مدينة أورشليم من كوارث محققة وقت الهجمات الكثيرة التي تعرضت لها، بحصولها على الماء العذب عبر هذه القناة من نهر جيحون الواقع خارج سور مدينة أورشليم.

ويبلغ طول هذه القناة من النهر إلى البركة ما يزيد على نصف كيلو متر (١٧٠٠ قدم) عبر الصخور، والتي حفرها العمال من الطرفين وتقابلا في الوسط، وإلى اليوم يمكن مشاهدة بعض الكلمات المنحوتة في الحائط، والتي تعبر عن تقابل العمال معاً في الحفر من الطرفين أي من جانب نهر جيحون ومن جانب البركة. وقد اكتشفت هذه الكتابة عام ١٨٨٠ م. وفي مخطوطات سلوام الشهيرة، والتي قطعت من الحائط وحملت إلى متحف في اسطنبول، تحكي قصة الحفر، بأنه بينما لم يكن باقياً غير ما يقرب من خمسة أقدام على تواصل نقطتي الحفر للقناة سُمع صوت نداء الواحد للآخر(١).

بالإضافة إلى هذا العمل العظيم بني حزقيا كل السور المنهدم وتمت تعليته إلى مستوى الأبراج، كما بنى سوراً آخر خارجاً، وحصن القلعة مدينة داود (أورشليم) (٢أخ ٣٢:٥).

بالرجوع والسكون تخلصون

بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم (٣٠:١٥).

(1) ANET, (3rd ed.) P.321

تمثل إيمان إشعياء في ثقته أن الرب يسود ويهيمن على الخليقة كلها. وأن أشور دعيت لتحقيق قصد الله. ويظهر ذلك في كلمات بديعة في الجزء الأول من السفر (١-٣٩، قارن ١٠:٥-١٩). وجاء التعبير بأن أشور عصا غضب الرب، «ويل لأشور قضيب غضبي والعصا في يدهم. هي سخطي على أمة منافقة أرسله، وعلى شعب سخطي أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهباً. ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة».

ولم تدرك أشور هذه الحقيقة بأنها أداة في يد الرب بل اعتقدت بأنها تمارس حقوقها وبيدها وحدها مقاليد الأمور السياسية، ورغم ذلك فإن الله هو المسيطر والسيد. وقد تحدث المرنم في ذلك بالقول: «لأن غضب الإنسان يحمدك» أي أن غضب الأعداء يخدم قصدك الإلهي (مزمور ٧٦:١٠).

إن التاريخ لا تصنعه الشعوب التي تملك القوة أو العتاد، كما اعتقد الغزاة الأشوريين بأنهم صانعو التاريخ، فافتخروا وانتفخوا - كلا - بل سيعاقب ملك أشور على اعتقاده هذا. كما أن شعب الرب نفسه سوف لا ينجو من غضب الله المسلط عليه من أشور عصا الرب. وبعد أن ينهي الرب عمله على جبل صهيون، سيعاقب ملك أشور على فكر تعديه وكبريائه. «لأنه قال بقدرة يدي صنعت وبحكمتي لأني فهيم. ونقلت تخوم شعوب ونهبت ذخائرهم وحططت الملوك كبطل. فأصابت يدي ثروة الشعوب كعش وكما يجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض ولم يكن مرفرف جناح ولا فاتح فم ولا مصفصف. هل تفتخر الفأس على القاطع بها أو يتكبر المنشار على مردده. كأن القضيب يحرك رافعه. كأن العصا ترفع من ليس هو عوداً» (إش ١٠:١٣-١٥).

وفي الوقت المعين سيُسقط الرب الأشوري تحت قدميه ويرفع النير عن شعبه. لقد حلف رب الجنود قائلاً «إنه كما قصدت يصير وكما نويت يثبت. أن أحطم أشور في أرضي، وأدوسه على جبالي فيزول عنهم نيره ويزول عن كتفهم حمله».

هذا هو القضاء المقضي به على كل الأرض، وهذه هي اليد الممدودة على كل الأمم فإن رب الجنود قد قضى فمن يبطل ويده وهي الممدودة فمن يردها (١٤:٢٤-٢٧). وستدرك ممالك الأرض أن يهوه الرب هو الملك وأن التاريخ لا يتعدى شطوط القصد الإلهي. والشعب المؤمن هو الذي يسلم نفسه لنير الرب الإله، وليس لنير أشور. وهو الذي يقبل دينونة الله كدعوة للتطهير من الذنوب، وينتظره بصبر للوقت الذي يضع فيه الرب كبرياء المتجبر.

من هذا المنطلق نصح النبي إشعياء حزقيا الملك أن يتجنب الثورة على أشور. كما أدان التحالف السياسي ضدها وأسماه عهداً مع الموت (قارن إش ٢٨:١٨). وقال إن الرب سوف يفتقد أرض يهوذا، ويربك كل خطط بني البشر وآمالهم (أعداد ١٤-٢٢) ويدين اللجوء إلى القوى الأرضية والتفاوض السري مع مردوخ بلادان ملك بابل (٢مل ٢٠:١٢-١٩). ويوبخ الذين نزلوا إلى مصر طلباً للعون، واثقين في خيولهم لأنها كثيرة، وفرسانهم لأنهم أقوياء، فالمصريون أناس لا آلهة، وخيلهم جسد لا روح. والرب يمد يده فيعثر المعين ويسقط المعان ويفنيان كلاهما معاً (إش ٣١:١-٣).

مثل هذه الجهود السياسية التي قامت بها يهوذا تبرهن، كما يرى النبي، على أن الشعب لم يضعوا ثقتهم في قدوس إسرائيل (إش ٣٠:١-١٥) لذلك ينبر النبي على جهالة الاحتماء بظل مصر مردداً نصيحته المبكرة للملك آحاز (إن لم تؤمنوا فلا تأمنوا) (٧:٩).

ويقدم إشعياء تلخيصاً مهما لمعنى الإيمان، «لأنه هكذا قال الرب بالرجوع والسكون تخلصون بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم» (٣٠:١٥).

إن أمان وطمأن يهوذا لا يكمن في الجهود السياسية كسائر الشعوب، بل في رجوعهم إلى الرب واعتمادهم عليه في ثقة وإيمان راسخ لأن خلاصهم سيأتي من الله وحده وفي الوقت المعين من قبله. لكن الشعب قال «لا» (٣٠:١٦)

وأرادوا أن يهربوا على خيول. ولأنهم لم يذعنوا لصوت الرب إلههم فإنهم سوف يسمعون صوت الجبار المستوحش بلسان آخر (٢٨:٧-١٣).

ومن البداية إلى النهاية كان إشعياء ضجراً بل وغاضباً من الشعب لعدم الطاعة وعدم المعرفة وعدم الفهم لدعوة الرب قائلاً لهم «هذه هي الراحة وهذا هو السكون.... لكن لم يشاءوا» (١٢:٢٨). ورغم ذلك فقد وثق إشعياء أن هناك بقية ستخلص من الهلاك وأن الرب سيقيم في أورشليم مدينة العدل القرية الأمينة (إش ٢٦:١) «حجر زاوية كريماً أساساً مؤسساً من آمن لا يهرب». ويجعل الحق خيطاً للقياس والعدل مطماراً للكشف عن أعمالهم الشريرة» (١٦:٢٨-١٧).

كان هدف إشعياء من هذه الدعوة أن يثقوا في الرب ويؤمنوا بكلامه. وهو ملك الأرض وقدوس إسرائيل حتى يحيوا راسخين آمنين.

ويل للأمة الخاطئة

تحرك سنحاريب ملك أشور ليقضي على تمرد مقاوميه، ومهددي إمبراطوريته، وهزم مردوخ بلادان ملك بابل هزيمة ساحقة مع كل حلفائه، كما أحكم سيطرته على بلاد ما بين النهرين عام ٧٠٣ ق.م. وحقق نصراً عظيماً على بلاد الغرب. كما انتصر على فينيقية ومناطق فلسطين، ومعظم جيش الغزاة المصري في مدينة عقرون الفلسطينية. ويعكس ميخا (١:١-١٦) صورة حية لتقدم الأشوريين الذين سقطت أمامهم كل المدن المجاورة الواحدة تلو الأخرى ومن بينها المدينة الحصينة لخيش. ثم لتحرك جيش أشور جنوباً عبر السامرة نحو يهوذا واقترابه من أورشليم (قارن ١٠:٢٨-٣١). ويعكس هذا النص صورة حية للسرعة الرهيبة لهزيمة المدن. وطبقاً لتاريخ سنحاريب فقد استولى على ٤٦ مدينة للملك حزقيا ومدن عديدة صغيرة مجاورة، وأخذ الكثير من سكانها كأسرى. وما ورد في (٢مل ١٨:١٣-١٦) يتفق مع النشاط الخاص بأشور في التاريخ[1].

وفي عام ٧٠١ ق.م حاصر سنحاريب ملك أشور مدينة أورشليم وعزلها عن كل عون. واعتقد سنحاريب أن حزقيا ملك يهوذا صار كطائر سجين حبسه في مدينة أورشليم عاصمة مملكته. بل أبعد من ذلك قارن إشعياء النبي هذه الأزمة المأساوية بما لحق بسدوم وعمورة من خراب وتدمير. وصار كل الرأس مريضاً وكل القلب سقيماً من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جرح وإحباط (١:٤-٨). لكن المدينة أورشليم لم تُعان الدمار الكامل مثل سدوم وعمورة، لأن الرب في رحمته أبقى بقية (١:٩، قارن ٢مل ١٨-١٩، إشعياء ٣٦-٣٧).

وخلال حصار لخيش، أرسل سنحاريب ممثلين له بقيادة ربشاقي: (لقب بابلي يعني به رئيس أو ممثل قيادة) إلى أورشليم ليطلب منها الاستسلام بغير قيد أو شرط. ويصور لنا الكاتب التفصيلات الدقيقة لهذا الحدث الجلل، حتى أنه يخيل للقارئ بأنه مشارك للحدث وهو يقف على السور بين شعب المدينة وربشاقي الواقف عن بُعد، وخلفه جيش محارب قوي ومتمرس، ينذر ويحذر (٢مل ١٨-١٩، قارن إش ٣٦-٣٧).

ويلتمس رؤساء يهوذا من ربشاقي أن يتحدث إليهم بالأرامية اللغة الرسمية للحوار الدبلوماسي في ذلك الحين، ولا يتحدث إليهم باليهودي لغة عامة الشعب. حتى لا يفهم الشعب لغة التهديد والوعيد هذه، ويفقدون كل رجاء للنجاة من هذا المُعتدي. لكن ربشاقي زاد في تحديه وصلفه، وقال بأنه لا مناص، وأن على الشعب أن يستسلم حتى لا تقع بهم خسائر فادحة أمام جيش أشور الذي لا يُقهر.

رسالة إشعياء المطمئنة

إن الرب أسس أورشليم وبها يحتمي بائسو شعبه

(1) ANET, P.287-288

آمن إشعياء أن أشور لا تزيد عن كونها عصا غضب الرب وأداة في يده. وقوة أشور هذه معطاة لها من الله، وهذه القوة يمكن أن يستردها الرب وقتما يريد. وأعلن إشعياء خلال غزو سنحاريب لأرض يهوذا وتهديده لمدينة أورشليم، أن صهيون (حصن داود) لن تسقط. فهي المدينة أورشليم التي أسسها الرب (إش ٢٤: ٣٢). إنها مدينة هيكل الرب حيث تابوت عهد الرب، وجبل صهيون (الحصن) هو مكان اسم رب الجنود (١٨: ٧)، وفي هيكل أورشليم تمتع إشعياء برؤيا السيد رب الجنود، وصارت أورشليم مدينة داود وأسرته الحاكمة عبر القرون العديدة التاريخية، ورمزاً للاستقرار الاجتماعي الذي مُنح لها من الله.

أما عن إسرائيل (المملكة الشمالية) فإن عصيانها كان أساساً كافياً لينهي تاريخها. ويشبه إشعياء كثيراً النبي عاموس في نقده المفرط للمجتمع، وإدانته لكل عمل رجس، وطلبه الملح دائماً للإصلاح. وآمن النبي بأن الرجاء في المستقبل مرتبط بل مؤسس ليس على سلوك الشعب أو عظمة ملكهم، بل على العهد الذي قطعه الرب مع داود وأمانة الرب في وعده. فقصد الرب مع داود لم يكن ليمحو أورشليم، وطالما نبر إشعياء النبي على ذلك مراراً. بل أن تُبنى أورشليم الجديدة على أساس البقية الأمنية، لتكون مدينة مقدسة تتكل على الرب وتحتمي فيه (إش ١٠: ٢٠-٢١).

«لذلك هكذا يقول الرب عن ملك أشور، لا يدخل هذه المدينة ولا يرمي هناك سهماً ولا يتقدم عليها بتُرس ولا يقيم عليها مترسة. في الطريق الذي جاء فيه يرجع. وإلى هذه المدينة لا يدخل يقول الرب، وأحامي عن هذه المدينة لأخلصها من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي» (٣٧: ٣٣-٣٥).

لقد أخطأت أشور بل تعدت باعتقادها أنها تملك القوة، ولا يستطيع أحد مقاومتها. ولم تدرك أنها مجرد أداة في يد القدير العلي. أداة دينونة، غايتها الخلاص والتجديد، وليس للفناء والتدمير. «لأنه كما في جبل فراصيم يقوم الرب. وكما في الوطاء عند جبعون يسخط» (إش ٢٨: ٢١أ، قارن ١أخ ١٤: ٨-١٦، يش ١٠: ١٠-١٢). «ليفعل فعله الغريب وليعمل عمله الغريب» (إش ٢٨: ٢١ب). يقصد إشعياء بهذه الكلمات هنا، أن الرب يستخدم شعباً وثنياً لهدف مجيد، وهو تأديب مختاريه ليرجعوا إليه.

لذلك ستسقط أشور ليس بسيف صنعه الناس، بل سيأتي الرب ليحارب على جبل صهيون وكطيور مرفة يحامي عن أورشليم (٣١: ٤-٩، قارن ٢٨: ١-٨) ويرتجف الأشوريون ويرتاعون من يد الرب القدير وصوته المجلجل الرهيب (٣٠: ٢٧-٣٣)، حتى يعلموا أن الرب وليس أشور هو الحاكم وصانع التاريخ.

وأحامي عن هذه المدينة

عندما علم الملك حزقيا بتحدي ربشاقي امتلأ الملك بالرعب وكل احباط (٢مل قارن إش ٣٧). وقال إن هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة، لأن الأجنة قد دنت إلى المولد ولا قوة على الولادة (٣٧: ٣). وجاء جواب الرب إلى حزقيا عن طريق إشعياء النبي بعقاب الأشوريين وملكهم (٢مل ١٩: ٢٠-٢٨).

وترددت الكلمة النبوية «ويعود الناجون من بيت يهوذا الباقون يتأصلون إلى أسفل، ويصنعون ثمراً إلى ما فوق لأنه من أورشليم تخرج البقية والناجون من جبل صهيون، غيرة رب الجنود تصنع هذا» (إش ٣٧: ٣١-٣٢) قارن (إش ١٠: ٥-١٦).

ورحلت جيوش أشور دون أن تتمكن من حصار أورشليم تماماً، كما تكلم إشعياء النبي في (٣٧: ٣٢-٣٤)... «هكذا قال الرب عن ملك أشور لا يدخل هذه المدينة... في الطريق الذي جاء فيه يرجع، وإلى هذه المدينة لا يدخل يقول الرب. وأحامي عن هذه المدينة لأخلصها من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي. وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش أشور مئة وخمسة وثمانين ألفاً. وانصرف سنحاريب ملك أشور راجعاً إلى نينوى وقتله ابناه بالسيف» (أعداد ٣٥-٣٧).

وخلص الرب أورشليم لأنه أسسها ليحتمي بها بائسو شعبه (١٤:٣٢).

ولا يعرف الشيء الكثير عن إشعياء خلال الفترة الأخيرة من حياة الملك حزقيا، الذي مات عام ٦٨٧ ق.م. تقريباً. جاء في التقليد اليهودي أنه استشهد خلال حكم منسى الذي تولى الحكم بعد حزقيا أبيه.

لا تذكروا الأوليات... هانذا صانع أمراً جديداً (٤٣:١٩)

ذكر تشارلز بيرد Charles A.Beard أحد المؤرخين أن بعض دروس التاريخ يمكن تلخيصها في المثل القائل «إن النحلة تخصب الزهرة» وتلك هي حقيقة ما حدث لإسرائيل زمن السبي وآلامه. وقد بدت التجربة قاسية وأليمة بالنسبة لهم. ولكنهم أدركوا بعد ذلك بأن الله كان يعمل من خلالها للخير. فقد سُحقت إسرائيل بالغزاة ونُهبت لكنها اجتازت مأساتها التاريخية، فقد أخصبت الضيقة عمقاً في فهمها الديني. وتحدث هوشع النبي ٢:١٤ في ذلك قائلاً: إن الرب قاد شعبه إلى البرية التي لم تكن مجرد صحراء، بل كانت أيضاً مقفرة وموحشة، حتى يتحدث إلى قلوبهم.

ويعد الجزء الثاني من إشعياء (٤٠-٥٥) إعلاناً واضحاً وقوياً للخبر السار، لشعب مسبي يسكن في الظلام ويسمع عن بزوغ فجر جديد باقتراب يوم خلاصهم، وتعزية لقلوبهم المكسورة، بل إن كل نص فيه يتضمن تعاليم عن أحداث عظيمة آتية، تدعو إلى التهليل. وعندما يدخل المرء ساحة الإيمان هذه يشعر وكأنه انتقل من هول الجحيم وكل رعب، وتحرك إلى أعلى سماء، عبر أبواب ملكوت الله، كما يصورها لنا أحد علماء الكتاب، ولا غرابة في أن كاتبي العهد الجديد يشيرون إلى هذه الأجزاء الكثيرة التي تعلن عن الأخبار السارة باقتراب ملكوت الله.

مُبشرة صهيون.... مُبشرة أورشليم

تعددت الآراء حول الكلمة «مُبشرة» فهل يقصد بها حاملة الخبر السار. ومن هي حاملة الأخبار السارة لصهيون (أورشليم). جاء في الترجمات العديدة بأن أورشليم هي المبشرة بمعنى: «على جبل عال اصعدي يا صهيون المبشرة. ارفعي صوتك بقوة يا أورشليم المُبشرة. ارفعي لا تخافي. قولي لمدن يهوذا هوذا إلهك» (٤٠:٩).

أما عن الأصل العبري للكلمة «مُبشرة» فهي إنجيل بمعنى «الخبر السار» فربما يقصد بها على جبل عال إصعدي أيتها الكلمة السارة لصهيون والمبهجة لأورشليم. أي أن الكلمة السارة هي موضوع المناداة. ولعلها إجابة لذلك الصوت السائل في المجلس السماوي بماذا أنادي (٤٠:٦) فيأتيه الجواب بالخبر السار (بالإنجيل) تنادي لصهيون. وليصعد دوي الكلمة المبشرة في كل الأرض، على الجبال والآكام وأورشليم تحمله إلى كل مدن يهوذا. ارفعي يا أورشليم لا تخافي. قولي لمدن يهوذا هوذا إلهك.

«هوذا السيد الرب يأتي بقوة وذراعه تحكم له» (عدد ١٠)... كراع يرعى قطيعه بذراعه يجمع الحملان، وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات» (عدد ١١).

تعد الآيات الأولى (١-١١ من الأصحاح الأربعين) تعبيراً صادقاً لإرسالية النبي التي كلف بها من المجلس السماوي، مجلس الرب وهو ماثل بينهم (قارن إرميا ٢٣:١٨ مع إش ٦)، وهي أن يحمل الأخبار السارة والمبهجة بالتعزية والتحرير من كل عبودية وذل وهوان، وإعلان سيادة الله الكاملة والتامة على كل المسكونة والساكنين فيها (قارن أعداد ١-٣، ١٢-١٦، ٢١-٢٢) ثم يتحدث الرب إلى أعضاء المجلس السماوي معلناً قضاء إسرائيل وقضاء الشعوب الأخرى (أعداد ٢٣-٢٦، ٢٧-٣١).

سيعلن مجد الرب ويراه كل بشر

تلقى إشعياء النبي إرساليته في الأصحاح السادس بعد أن تأهل لها (قارن ٦:٥-٧)، ليعلن رسالة الدينونة على شعب لا يستجيب (أعداد ٩-١٣) وهذه المرة في (٤٠:١-٢) ليعلن رسالة التعزية للمسبيين البائسين.

«طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل». والكلمات هنا كما يرى علماء الكتاب إشارة إلى السبي الذي يبدو أنه كان عقاباً ودينونة لشعب متمرد وعنيد، لكن الأمر الجوهري الذي يؤكده النبي هنا، أن السبي كان فترة جهاد مثل جهاد المجندين لخدمة عسكرية... صحيح عانى الشعب كثيراً فترة السبي (٤٢:٢٤-٢٥، ٤٨:١٧-١٩)، لكن جاء الوقت الآن ليُعلن الجانب الآخر من تلك الفترة. والذي عبر عنه هوشع النبي قبل ذلك بأن الرب كان يتحدث إلى قلب إسرائيل في البرية (قارن هوشع ٢:١٤)، والبرية هنا هي التي يشار إليها السبي، هي بمثابة إعداد وتدريب وتقويم وتهذيب.

ورسالة النبي من الرب إلى شعبه، هي حديثه إلى قلوبهم في العبودية وغربة الأسر بل أكثر من ذلك أنهم سيتحررون من عبودية الإثم. إنها رسالة الغفران عن ماضيها الأثيم، ليس لأنها استكملت عقابها عن الخطية، بل رسالة النعمة الإلهية المجانية التي تحثهم على بداية جديدة. ويتمثل ذلك في قول الرب: «لم تُحضر لي شاة محرقتك، وبذبائحك لم تكرمني. لم أستخدمك بتقدمة ولا أتعبتك بلبان... أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي وخطاياك لا أذكرها» (٤٣:٢٣،٢٥، قارن إرميا ٣١:٣٤). وبهذا يتحقق المرء بأنه قد اقترب ملكوت الله ومجده ملء كل الأرض (٦:٣). «ويعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعاً لأن فم الرب تكلم» (٤٠:٥).

والكلمات الواردة في العدد الثالث تُعد جواباً للقرار الإلهي في العددين السابقين «صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب. قوموا في القفر سبيلاً (طريقاً) لإلهنا». ويرى أحد العلماء أنه ربما كان هذا الطريق إشارة إلى الخروج الثاني (من السبي) فهو الرب (يهوه) مخلصهم الذي أخرجهم من عبودية المصريين وهو ذاته الذي يذلل كل العقبات والمصاعب. «كل جبل وأكمة ينخفض ويصير المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً» (٤٠:٤ قارن ٤٣:١٦، ١٩، ٤٨:١٧، ٤٩:١١، ٥١:١٠) وهو معهم أيضاً حتى يُرجعهم إلى أرض آبائهم، الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً (٤٠:١٠-١١، قارن ٤١:١٨-١٩، ٤٢:٦، ٤٨:٢١، ٥٥:١٢-١٣). هذا من الوجهة التاريخية لإرسالية إشعياء، وهي: أن ينبئ الشعب بكلمات الرب المطمئنة وما يصنعه بهم مستقبلاً. إنه عمانوئيل، لن يتركهم في الهوان والذل (أرض السبي). كما أن لهذه الكلمات معنى وقيمة لكل إنسان، في كل زمان ومكان بجتاز ضيقاً وألماً. ولها أيضاً المعنى النبوي الذي أشير عنه في العهد الجديد (قارن لوقا ٣:٣-٥، مت ٣:٣، مرقس ١:٣، يوحنا ١:٢٥).

في هذا الخروج الثاني سيُعلن مجدُ الرب. ويراه كل بشر جميعاً. سيعلن بأسلوب فريد لا يقارن.

لقد أعلن الرب عن نفسه في طرق وأساليب عديدة للآباء قديماً لإبراهيم (تك ١٢:٧-٨، ١٨:١-٣) وليعقوب «إسرائيل» (تك ٢٨:١٠-١٩) ولموسى في البرية (خروج ٣:٢-٦) وللشعب على جبل سيناء (خروج ٢٤:٩-١١، ١٥-١٨) وجدعون (قض ٦:١١-٢٤). وكما ظهر للأنبياء في رؤى ليقوموا بإرساليتهم النبوية (عاموس ٥:١٨-٢٠، إش ٢:٥-٢٢، صفنيا ١:٧، ١٤-١٨).

وكان الاعتقاد السائد زمن السبي، بأن مجد الرب قد فارق الهيكل بتدمير مدينة أورشليم. لكن حزقيال النبي أيضاً يعلن بأن مجد الرب سيعود إلى أورشليم الجديدة أي بعد العودة من السبي إلى أرض الآباء أرض يهوذا (حزقيال ١٠:١٨-١٩، ١١:٢٣، ٤٣:١-٥، قارن ١:٢٨، ٣:٢٣) بل سيعلن مجد الرب ويراه كل بشر. وهذا الظهور لا يعد ضمن سلسلة الظهورات الإلهية السابقة الإشارة عنها، بل سيكون ظهوراً كاملاً ونهائياً يملأ الزمان والمكان بعد أواخر الدهور كإتمام قصد الله في التاريخ.

في رؤيا إشعياء، تجد السرافيم يغطون وجوههم أمام المجد الإلهي، لكن هذه المرة سيراه كل بشر.

ويرى علماء الكتاب المقدس أن هذه الكلمات هي إشارة واضحة عن مجيء الرب يسوع المسيح له المجد تحقيقاً لهذه النبوة (قارن لوقا ٣:٦، لوقا ٢:٣٠ مع إشعياء ٥٢:١٠).

يهوه الرب إله أبدي وكلمته تثبت إلى الأبد

في (إش ٤٠:٦-٨) نجد متحدثاً آخر يستأنف الإعلان، ويرجح العلماء بأنه واحد من المجلس السماوي «صوت قائل ناد». فيجيبه النبي الذي كان ماثلاً بينهم (قارن إش ٦): «بماذا أنادي»؟ ويأتيه الجواب: «كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل». كزهر الحقل الأخضر البديع والخلاب في موسمه، لكن حالما تهب عليه ريح الصحراء ييبس – بمعنى أن سيادة الله وديمومته عادلة على كل البشرية المحدودة والفانية. لأن وجودهم وقتي وإنجازاتهم ستبطل – وهذه الملاحظة تعد بمثابة مقدمة لتأكيد الإيمان في ذاك، الخالد الأبدي الأزلي «يبس العشب، ذبل الزهر وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد» (إش ٤٠:٨). إنها دعوة للتمسك بقوة الرب ومجده، ويقين العودة من السبي بعناية القدير وصانع التاريخ. لأن كلمة الرب: إعلانه – خطته – إرادته – قصده، غير قابلة للتغيير، والله هو العامل بقوة في التاريخ البشري (إش ٥٥:٨-١١)، لأنه السرمدي (تك ٢١:٣٣) خالق أقاصي الأرض (٤٠:٢٨) رب الطبيعة والتاريخ ومصدر تعزية وعون طالبيه ومنتظريه (٤٠:٢٦-٢٨). الأول والآخر ولا إله غيره (٤٤:٦)، متمم قصده في وقته (٤٢:٢١، ٤٤:٢٨، ٤٦:١٠، ٥٣:١٠، ٢٥:١٠-١١) يُعين (يمسح) شخصاً مثل كورش ويجعله راعياً له ليتمم وينجز مسرته. إنه كورش الذي لم يكن يعرف الرب (إش ٤٤:٢٨، ٤٥:١-٥) لكي يدرك الجميع ويتحقق الكل، «من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيري. أنا الرب وليس آخر... أنا الرب صانع كل هذه» (٤٥:٦-٧).

الله الخالق والفادي

يعد موضوع الخلق والفداء من أبرز المواضيع التي يتحدث عنها النبي إشعياء (٤٠-٥٥) أكثر من أي كاتب آخر في الكتب المقدسة إعلاناً عن ربوبية الله وسيادته ليس على إسرائيل فقط، بل على شعوب العالم بأسره، وما ورد في هذا الجزء من (إش ٤٠-٥٥) يؤكد ما جاء في (تكوين ١) إن السموات والأرض تأصلتا من خلال عمل الرب في الخليقة منذ البدء وعمله غير المحدد. إنه الرب الذي هو الله وليس إنسان (قارن هوشع ١١:٩). قدوس إسرائيل (٤١:١٤، ١٦، ٢٠، ٤٣:٣، ١٤، ٤٧:٤، ٤٨:١٧، ٤٩:٧، ٥٤:٥؛ ٥٥:٥). وقداسة الله ضد كل ما هو نجس (٦:٣-٥) وعلى إسرائيل أن تتطهر حتى لا تخاف فيما بعد (٤١:١٠-١١، ١٣، ٤٣:١، ٣، ٥-٧، ٤٤:٢-٥، ٨، ٥١ :٧-٨، ٥٤:٤-١٠).

(أ) الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا

إن هدف النبي من حديثه عن الله كخالق كما يرى علماء الكتاب، هو تعزية وتطمين إسرائيل في السبي البابلي. فقد كشف النبي عن ضعفها واعتقادها بأن الله لم يعد يرى، أو يهتم بما يحدث للشعب. وقد ظن الكثير من اليهود حينما رأوا عبادات الآلهة الوثنية، واحتفالاتهم الرائعة أن انتصار البابليين عليهم كان برهاناً تاريخياً، بأن الإله مردوك هو الإله الأقوى والملك المحارب عنهم. لأجل ذلك كتب إشعياء إليهم رافعاً صوته بالقول: «أما عرفت أم لم تسمع، إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا، ليس عن فهمه فحص. يعطي المعيي قدرة ولعديم القوة يُكثر شدة، الغلمان يعيون ويتعبون والفتيان يتعثرون تعثراً. وأما منتظرو الرب فيجددون قوة، يرفعون أجنحة كالنسور، يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يعيون» (٤٠:٢٨-٣١).

على إسرائيل أن تدرك بأن الرب هو خالقهم، الإله القادر على كل شيء، وعلى تخليصهم من العبودية القاسية في أرض السبي. وعليهم كمسبيين أن ينتظروا بصبر، وثقة بالرجاء فيه وفي خلاصه، كصانع التاريخ من البداية إلى النهاية، منذ الخلق إلى نهاية العالم. إنه الأول والآخر. البداية والنهاية (إش ٤١:٤،٤٤:٦، ٤٨:١٢). كل أمور بني البشر هي في يده لأنه الخالق والقدير (قارن ٤٠:٢٦، ٢٨، ٤١:٢٠، ٤٢:٥، ٤٣:١، ٧، ١٥، ٤٥: ٧،٨،١٢،١٨، ١٢،١٨،٤٨:٧، ٥٤:١٦). إنها قدرته في الكون كخالق، والتي تنتصر على كل آلهة الوثن. إنه الله الذي أقام

كورش ليعمل مقاصده، ولكي يعلم البشر من مشرق الشمس إلى مغربها أن ليس غيره (٤٥:٦). إنه الرب الذي حقق نصراً لشعبه حسبما أعد وخطط لذلك وهو الذي يدير التاريخ ويعمل بقصد ليوم العتق من العبودية.

(ب) إسرائيل تُفْدى بالحق وتائبوها بالبر

يرتكز المعنى أو المفهوم اللاهوتي للفداء عند إشعياء على عمق فهم التعاليم المقدسة من وقت سيناء حيث تم خروج الشعب وتحريرهم من العبودية في مصر ليكونوا شعباً مقدساً للرب، وهو يكون لهم إلهاً (خروج ١٩:٤-٦). وصار إسرائيل شعباً خاصاً للرب، ولكن لمهمة أساسية وهامة (٤٣:١٠-١٣). غير أنهم اعتقدوا فيما بعد، أن الرب اختارهم وخلصهم من أرض العبودية لأنهم أفضل الشعوب، لذلك وقع عليهم العقاب وحُملوا إلى السبي للتطهير والتهذيب - وها هم يرجون خلاصه - ويذكرهم إشعياء الآن بخلاصه لهم في القديم (خروج ١٥:١٣، ٦:٦، مزمور ٧٧:١٥) «الجاعل في البحر طريقاً، وفي المياه القوية مسلكاً لأنه قدوس إسرائيل» (قارن ٤١:١٤، ٤٣:١٤، ٤٤:٦، ٢٤، ٤٧:٤، ٤٨:١٧، ٤٩:٧، ٢٦، ٥٤:٥، ٨، قارن ٥٩:٢٠، ٦٣:١٦).

وباختصار فإن مفهوم الفدا، عند النبي يعني التحرر من العبودية (٤٣:٥-٧، ٤٥:١٣، ٤٨:٢٠، ٤٩:٩، ١١، ١٤، ٥٢:٢-٣، ٥٥:١٢-١٣). وعقاب مضايقي شعبه المقدس (٤١:١١-١٣، ٤٩:٢٥، ٢٦، ٥١:٢٣) كل هذا لتعلم شعوب الأرض أن الرب وحده هو الله. فربما كانت إسرائيل ضعيفة وغير ذات أهمية أو كيان في عيون الشعوب القوية الجامحة. لكن هذا الشعب المزدرى به هو موضوع محبة الله واهتمامه (إش ٤١:١٤)، حتى يضمن ويحقق له العدل بين الشعوب الأجنبية الوثنية (٤٠:٢٧) والعودة وحياة الاستقرار. وسيأتي بأبناء إسرائيل من الشمال والجنوب (إش ٤٣:٦-٧) ويكسر قيود عبوديتهم ويرجعهم إلى وطنهم (٤٣:١٤-١٥، قارن ٤٨:١٤، ٢٠، ٤٠:٩-١٠، ٤٣:١، ٢، ٤٩:١١، ٥١:١١، ٥٥:١٢-١٣، قارن ٤٤:٢٦، ٤٥:١٣، ٥١:٣، ٥٢:٩). كما يضم الفداء أيضاً دعوة الشعوب الأخرى لتصير للرب (٤٥:٢٠-٢٣، ٥١:٤-٥، قارن ٤٩:٦) حتى تحقق إسرائيل هدف الله من اختيارها وفدائها (قارن ٥٦:٣-٧).

هذا الفداء الذي يعني أيضاً خلاصاً روحياً بغفران خطايا الشعب وتعزيتهم ومحو ذنوبهم (٤٣:٢٥، ٤٤:٢٢، ٥٤:٨) لم يكن لأن إسرائيل تستحق الفداء بل إنها النعمة والرحمة חסד (قارن تث ٧:٧-٩، ٩:٤-٦) كما في (إرميا ٣١:٣١-٣٤) الذي يتحدث عن العهد الجديد New Covenant الذي يقطعه الرب مع شعبه. ليس كالعهد الأول الذي قطعه مع آبائهم يوم خروجهم من أرض مصر، بل عهد نعمة ورحمة: أجعل شريعتي «ذات الشريعة» في داخلهم وأكتبها على قلوبهم... ولا يعلمون بعد كل واحد أخاه... لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب» (ومرجع ذلك): «لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد». إن الرب يعمل من أجل نفسه.. «وكرامتي لا أعطيها لآخر» يقول الرب (٤٨:٩، ١١).

ذراع الرب الجاعلة أعماق البحر طريقاً للمفديين (الخروج الثاني)

يصور إشعياء النبي حياة المسبيين في بابل في معاناتهم، بالحياة الأليمة قديماً أيام العبودية في مصر، ويعلن عن خروجهم الجديد (الثاني) إنه ذات الإله الذي سمع إلى صراخهم (خروج ٣:٧-٩) وشق البحر أمامهم وعبروا على اليابسة وسط اللجج والمياه سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم (خر ١٤:٢٢). وهو الرب الذي كان يسير أمامهم نهاراً في شكل عمود سحاب، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم (خر ١٣:٢١). كما عالهم أربعين سنة في القفر وأطعمهم المن والسلوى وفجر لهم الماء من الصخر ليرويهم من العطش. ثيابهم لم تبل، وأحذيتهم لم تبل. وسار بهم إلى أرض الموعد التي تفيض لبناً وعسلاً (قارن خروج ١٦:٢٢-٢٦، ١٧:٦، أيضاً تث ٨:٤، ٢٩:٥) إنه الإله القديم الذي أعلن عن نفسه لموسى قائلاً له: «هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دور فدور» (خر ٣:١٥).

وكما كانت يد الرب المحارب منتصرة لخلاصهم في الخروج الأول من مصر، فهي أيضاً القادرة أن تخرج بهم ثانية هذه المرة من أسرهم في بابل. أنه «القائل عن أورشليم ستُعمر، ولمدن يهوذا ستبنين، وخربها أقيم. القائل للجّة انشفي» (إش ٤٤: ٢٦-٢٧).

وفي الخروج الجديد يردد النبي كلماته: «استيقظي البسي قوة يا ذراع الرب. استيقظي كما في أيام القدم كما في الأدوار القديمة. ألست أنت القاطعة رهب. الطاعنة التنين. ألست أنت هي المنشفة البحر مياه الغمر العظيم. الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفديين» (إش ٥١: ٩-١٦).

ويعد حدث الخروج في نظر العديد من اليهود، بداية خلق شعب إسرائيل. غير أن إشعياء النبي يتحدث هنا عن خروج جديد، وبداية جديدة، لقصد جديد خاص بعمله الفدائي للبقية الباقية من شعبه، لأجل العهد الذي قطعه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب وداود (تث ٩: ٤-٦، قارن عاموس ٩: ١١-١٥). والبرية الموحشة تتحول إلى جنة مثل عدن وباديتها كجنة الرب، الفرح والابتهاج يوجدان فيها. الحمد وصوت الترنم (٤١: ١٧-٢٠، ٥١: ٣، ٤٣: ١٩-٢١) وترتبط إسرائيل الجديدة بعلاقة جديدة مع الرب (٥٤: ٤-١٠) وتترنم بترنيمة جديدة (٤٢: ١٠-١٢). ترنيمة السلام والمحبة التي تمثلت في يسوع المسيح.

أنتم شهودي يقول الرب

اجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم

يتحدث إشعياء بوضوح شديد عن إحسان الله الدائم ونعمته الفائقة لشعبه فيقول: «إن الجبال تزول والآكام تتزعزع، أما إحساني فلا يزول عنك وعهد سلامي لا يتزعزع قال راحمك الرب» (٥٤: ١٠ قارن ٥٥: ٣) ويمتد هذا الإحسان إلى وعد الرب في القديم لإبراهيم حينما قال له: «أجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» (تك ١٢: ٢-٣). وسوف يتحقق هذا الوعد فيمن يتبعوه في الإيمان العامل بالطاعة الكاملة (٥١: ١، قارن يوحنا ٨: ٣٣). وقد ظهر إحسان الرب في العهد الأبدي مع نوح (تك ٩: ٨-١٧) وعهده مع داود (٢صم ٧: ٣-١٧). وهذه المرة يجعل الرب إسرائيل التي هي نسل إبراهيم (٤١: ٨) ومنه صارت أمة عظيمة (٥١: ١-٢) عهداً للشعوب ونوراً للأمم (٤٢: ٦، ٤٩: ٨). ويرى أحد العلماء توريزنر Troezyner أن الكلمة «عهد» من الكلمة الأكادية «بارارو» Baram التي تعني يُشرق، وبذلك يتسق المعنى الموازي في الشطر الثاني من الآية «نوراً للأمم». ويعد العهد هنا تعبيراً عن النعمة الإلهية وأساس إرسالية الرب لشعبه، هذا الشعب الذي قال عنه إشعياء قبلاً «الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور» (٩: ٢). ومهمة الشعب الآن أن يحمل هذا النور ويقود بقية الشعوب الأخرى إليه. «نوراً وخلاصاً إلى أقصى الأرض» (٤٩: ٦، ٥١: ٤). وتتردد الكلمات «قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك، لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم. أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يُرى. فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك» (٦٠: ١-٣) وقد اكتمل هذا النور في أجلى صورة في ذلك الذي قال عن نفسه «أنا هو نور العالم» (قارن لوقا ٢: ٣١-٣٢).

ودعوة الرب عن طريق إشعياء النبي هي دعوة مقدمة إلى كل أمم الأرض «التفتوا إلي واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض. لأني أنا الله وليس آخر» (٤٥: ٢٢) «سيكون جبل بيت الرب في آخر الأيام، ثابتاً في رأس الجبال، ويرتفع فوق التلال، وتجري إليه كل الأمم وشعوب كثيرة قائلين: «هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب. فيعلمنا من طرقه، ونسلك في سبله، لأنه من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة الرب» فيقضي بين الأمم - ويعم السلام ويسود العدل - وعندئذ يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل، لا ترفع أمة على أمة سيفاً. «ولا يتعلمون الحرب

فيما بعد» (٢:٢-٤، قارن ميخا ٤:١-٥).

يخزي خزياً المتكلون على المنحوتات

إن أول اهتمام لدارس الكتاب المقدس كما يرى أحد العلماء ليس هو السؤال عن وجود الله، بل السؤال: من هو الله وماذا يطلبه الرب؟

ومن البدء نجد في الوصايا العشر التنبير على محبة الرب يهوه، وعبادته من القلب والنفس وكل القوة. ويوصي الرب شعبه قائلاً «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن» (خروج ٢٠:١-٥، قارن تث ٦:٤-٩)، إنه الإله الذي تجلت قدرته في خلاصهم من العبودية «الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية». وعلى الشعب أن يمتنع عن عبادة الآلهة الأجنبية الكنعانية وآلهة الخصب التي أسهب في الحديث عنها موضحاً مدى خطورتها هوشع النبي وكذلك النبي إرميا وحزقيال فيما بعد. إن قصد الرب أن تلتصق إسرائيل بالرب فاديها وخالقها وتبتعد عن كل ما عداه. والمنحوتات وكل المعبودات الوثنية لا قوة فيها. ويتحدى النبي إشعياء جميع الأمم الوثنية لتقدم برهاناً أن آلهتها تمكنت من تنفيذ عمل أو خطة معينة (إش ٤٢:٥، ٤٣:٨-١٣، ٤٤:٦-٨، ٢١-٢٣، ٤٤:٢٤-٤٥:١٣، ٤٨).

كما يسخر النبي من العبادة البابلية (قارن ٤٠:١٨-٢٠، ٤٤:٩-٢٠)، حيث لا قدرة لها لتحفظ الإنسان المتعبد لها. ويهاجم النبي الآلهة بيل ونبو بالقول: إنها محمولة بحيوانات خرساء - لكن الرب يحمل شعبه، ويرفع عنهم أثقالهم من الطفولة إلى الشيخوخة، وهو الرب وحده، لديه القدرة ليحقق هدفه الخلاصي في التاريخ (أصحاح ٤٦).

وتتطلب عبادة الرب طهراً ونقاوة. ويحدث النبي إشعياء بكلمات الرب «كفوا عن فعل الشر، تعلموا فعل الخير. اطلبوا الحق انصفوا المظلوم اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة» (١:١٧). ولم تعد الذبائح والمحرقات والعبادة الهيكلية التقليدية كافية لينال الإنسان قبولاً لدى الله. وقد ملّ الرب هذا النوع من العبادة بأن يقترب الإنسان بفمه إلى الرب ويكرمه بشفتيه، وأما قلبه فمبتعد عن إلهه بعيداً (٢٩:١٣)، وانغمسوا في شهواتهم وكبريائهم وتعنتهم. وماذا يطلبه منهم الرب إلا أن يتطهروا، ويمتنعوا عن فعل الشر ويعملوا ما هو حق وجليل وعادل (١:١١-٢٠). ويردد إشعياء القول إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض، وإن أبيتم وتمردتم تؤخذون بالسيف لأن فم الرب تكلم (قارن ١:٢٣، ٢:٧-٨، ٣:١٢، ١٥). ولأجل كبرياء الشعب وصلفه وعناده فإنهم لا يستطيعون أن يشعروا أو يذوقوا بركة حضور الله وأعماله المجيدة. فالتمسوا أمنهم السياسي من حاكمهم الأرضي (٣:١-١٥، ٧:٩، ٢٣:١٤-٢٢، ٣٠:١-٧، ٣١:١-٣) لهذا لا يوجد بديل عن العقاب، ولابد من التطهير (١:١٨-٢٠). يأتي الوقت عندما يُطرح كبرياء الإنسان كلية أمام الله العلي (٢:٩-٢٢). لقد تقرر العقاب (١٠:٢٣، ٢٨:٢٢) ولابد من نصرة البائس (٣:١٣-١٥). ونار العقاب ستُطهر (٥:٢٤، ٩:١٩، قارن ١:٢٥-٢٦). ولكن ستبقى بقية أمينة (١:٤-٩)، ويعود الشعب إلى الله المحب (٩:١٣، ١٠:١٢، قارن ٧:٣، ١٠:٢٠-٣٠). ويثق في الرب إلهه كأساس راسخ فيه (٧:٤، ٩، ٢٨:١٦، ٣٠:١٥، قارن ٣١:٢-٣). الأشوريون هم أداة وليسوا صناعاً بل هم يقضون أقضية الرب (١٠:١٢-١٧، ٧:١٤، ٢٠:٣-٤).

فقط على يهوذا أن تعيش بالحق وللحق شاهدة له (١:٢٦، ١٤:٢٤-٢٧، ٣١:٥)، لأن الرب هو قاضيها وحارسها.

عبد الرب

يعد موضوع «عبد الرب» من أهم بل من أصعب الموضوعات التي تناولها إشعياء في سفره وخاصة الجزء الثاني

منه (٤٠-٥٠). والكلمة «عبد» تعبير عن الخدمة والولاء للسيد وأعضاء الجماعة الأمينة من شعب الرب هم عبيد وخدام (نحميا ١:١٠، مزامير ٨٩:٥٠، ٩٠:١٣) سُمّي الآباء الأولون بعبيد (تث ٩:٢٧) وبوجه خاص إبراهيم (تك ٢٦:٢٤) ويعقوب (حزقيال ٢٨:٢٥)، كما دعي الأنبياء عبيداً (إرميا ٧:٢٥، عاموس ٣:٧) وبوجه خاص إيليا (٢مل ٩:٣٦)، ويونان ٢مل ١٤:٢٥، وإشعياء ٢٠:٣). وأكثر من ثلاثين مرة ورد التعبير «عبد» عن موسى وداود. كما ورد هذا اللفظ مراراً كثيرة كوصف للجماعة المتعبدة، التي اقترنت بالرب لتخدمه (إش ٥٦:٦، ٦٣:١٧، ٦٥:٨، ٩، ١٣-١٥ مع ٦٦:١٤)، فهم عبيد الرب وأهل للبركة والميراث، يأكلون ويشربون ويفرحون «ويترنمون من طيبة القلب».

فقد وردت بالسفر أربع قصائد كوصف للعبد، وإن لم تُوضح هويته بالتحديد.

١- (٤٢:١-٤) «يخرج الحق للأمم».

٢- (٤٩:١-٦) «الرب من البطن دعاني من أحشاء أمي ذكر اسمي».

٣- (٥٠:٤-١٠) «يوقظ كل صباح. يوقظ لي أذناً لأسمع كالمتعلمين».

٤- (٥٢:١٣-٥٣:١٢) «رجل أوجاع ومختبر الحزن».

والقصيدة الرابعة والأخيرة تعد تعبيراً مجسداً لآلام السيد له المجد الذي تمت في شخصه نبوة هذه الكلمات الواردة بهذه القصيدة. ويجب أن نفهم قصائد العبد في إطار القرينة لرسالة إشعياء الواردة بها.

ويرى بعض الباحثين أن قصائد العبد لم ترد عنها إشارة في أي مكان آخر غير كتابات الجزء الثاني من إشعياء. ويرى بعضهم أن إشعياء لم يكن كاتب هذه القصائد. إلا أن هذا الرأي يفتقر إلى الدليل العلمي، كما يرى علماء الكتاب، وذلك لاتساق الأسلوب في الكتابة مع بقية أجزاء السفر الواردة به. إنها تنتمي إلى نفس كاتب سفر إشعياء النبي.

إسرائيل كعبد

تُلقي إحدى قصائد العبد بعض الضوء (في إش ٤٩:٣). وفيها يرتبط اسم العبد بإسرائيل في القول «أنت عبدي إسرائيل الذي به أتمجد» ولا يلبث الغموض قائماً، لأنه في نفس القصيدة (عدد ٥، ٦) نجد أن العبد له رسالة لإسرائيل نفسها. غير أن هذا النص يعد همزة وصل لقصائد أخرى كثيرة تُخاطب فيها إسرائيل بعبد الرب. وفي هذه الحالة فإن دور العبد مرتبط بمهمة إسرائيل كشعب الرب المختار «إسرائيل عبدي». «يعقوب الذي اخترته» (٤١:٨-١٠، ٤٣:٨-١٣، ٤٤:١-٢، ٦-٨، ٢١-٢٣، ٤٤:٢٤-٤٥:١٣، قارن ٤٨:١، ٧، ١٠-١٢، ١٧). وبهذه النصوص يربط النبي إشعياء العبد بجماعة العهد التي هي إسرائيل. والتي عبر الكاتب فيها عن غضب الرب من نحوها قائلاً: «من أجل نفسي أفعل، لأنه كيف يدنس اسمي، وكرامتي لا أعطيها لآخر» (٤٨:١١). إن الرب ينقي ويطهر الشعب لخدمة أعظم وأمجد. والكارثة القومية التي حلت بإسرائيل كعقاب على جهالتها وعصيانها لشريعة الرب (٤٢:١٨-٢٥، ٤٣:٢٢-٢٨، ٤٧:٦، ٥٠:١، ٥٤:٧). وعليها أن ترجع إلى الرب فتنال الصفح والغفران (٤٠:١-٢، ٢٧، ٤١:٨-١٠، ٤٣:٢٢-٤٤:٥). وسوف يعيد الرب صنع شعبه عبر نار التجربة وآلامها، حتى يكونوا أداة فعالة ومؤثرة لتحقيق قصده في التاريخ.

العبد الفرد

رأينا أن العبد يشار إليه بأنه إسرائيل كشعب، لكن يشار عنه أيضاً بأنه فرد أو شخص بعينه (٤٣:١-٤، ٤٩:١-٦، ٥٠:٤-٩، ٥٢:١٣-٥٣:١٢). وعبد الرب يهزم الفشل بثقته غير المتزعزعة (٤٩:٤، ٥٠:٧-٩) وهو

بلا خطية وبلا إثم (٥٠:٥، ٥٣:٤-٥، ١٢)، ومعاناة عبد الرب ناجمة عن خطايا الآخرين (٥٣:٤-٦،٩) وهو يقاسي بصبر (٥٣:٧) وإسرائيل العبد في حالة فشل وإحباط (٤٠:٢٧، ٤٩:١٤، ٥٠:١-٢). ويقاسي عبد الرب بغير إرادته ويجب محاكمة أعدائه (٤١:١١-١٢، ١٥-١٦، ٤٢:١٣-١٥). وهنا نجد أن مهمة وإرسالية العبد هي الألم طواعية لأجل الآخرين والتوسط لأجل الخطاة (٥٢:١٣-٥٣:١٢).

وذهب بعض المفكرين إلى أن هذه النصوص الخاصة بالعبد كشخص ربما تتعلق بموسى النبي وسيط العهد، الذي توسط من أجل شعبه ومات محتملاً تذمراتهم (تث ٣:٢٣-٢٧، ٤:٢٣).

غير أن الباحث المدقق للنصوص الخاصة بالعبد كفرد، كما يرى علماء الكتاب، تتحدث وتشير إلى شخص آخر يناسب تماماً الصورة التي رسمها النبي إشعياء، عن ألم ومعاناة هذا العبد البار وغير الأثيم، ألا وهو المسيا المنتظر.

رجل الأحزان

«أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها».

تعد القصيد الرابعة (٥٢:١٣-٥٣:١٢) قمة أسلوب الكاتب في تصويره النبوي عن العبد إنسان الحزن. ويمكن تقسيم هذه القصيدة كما يرى أحد العلماء، إلى خمسة أقسام أو وحدات شعرية، فنجد في البداية والنهاية أن الرب هو المتحدث، وعندما يتكلم الرب تصغي الشعوب، وتسمع أن العبد سيتمجد من خلال الألم.

في الجزء الأول (٥٢:١٣-١٥) يقدم الرب العبد ويعلن انتصاره ورفعته ويتعجب الناس «يسد ملوك أفواهم لأنهم قد أبصروا ما لم يخبروا به».

وفي الجزء الثاني (٥٣:١-٣) يعبر الملوك عن دهشتهم مما يرون ويسمعون. أمر لا يصدق، لقد نما العبد أمام الرب مثل الجذع اليابس البائس.

ويفسر البعض بأنه إشارة عن المسيا الذي يطلق عليه بالغصن من جذع يسي (قارن ١١:١،١٠، إرميا ٢٣:٥) «غصن بر فيملك وينجح ويجري حقاً وعدلاً في الأرض».

ويصور الكاتب صورة العبد البشعة والمنفرة (٥٢:١٤) «كان منظره كذا مفسداً.. لا صورة له ولا جمال... وكمستر عنه وجوهنا، محتقر»... وهذا يذكرنا بصورة الرجل الأبرص عندما كان يستر الناس وجوههم عنه بل يبعدونه بعيداً خارجاً (لاويين ١٣:٤٥).

وفي الجزء الثالث من القصيدة يتعجب الملوك والولاة من أن هذا العبد المحتقر والمخذول، هو نفسه الذي استعلنت فيه ذراع الرب القدير (٥٣:٤-٥) وتنفتح عيونهم فجأة ليدركوا معنى وسبب آلامه.

إنه بسببهم صارت له هذه الصورة غير الراغبين فيها، حتى ستروا وجوههم عنه «فلم نعتد به» لقد تألم لأجلهم فحمل تبعة خطاياهم... أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها... حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً. وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا». ولدهشتهم أدركوا بأن الشخص العليل هذا هو مصدر شفائهم. وصار محرقة لفدائهم، ولأجل إسعادهم وخلاصهم. معترفين قائلين: «كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلى طريقه، والرب وضع عليه إثم جميعنا» (عدد ٦). هذا النوع من الفكر العميق لفهم وتجسيد معنى الألم لا نجد شبيهاً له كما يرى العلماء في أي مكان آخر في الكتب المقدسة.

في الجزء الرابع: (٥٣:٧-٩) لا تزال الأمم تتحدث عن تذلل العبد والظلم الذي وقع عليه وعن وداعته وتواضعه الفائق (٤٢:١-٤، ٥٠:٤-٩). وعندما أصابه الألم والحزن حمل ثقله في صمت بدون شكوى «مثل شاة تساق إلى

الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه». وفي طريقه إلى الموت لم يُعره أحد التفاتاً - قطع من أرض الأحياء ووضع مع الأشرار قبره. لقد كان وديعاً وباراً دائماً. لم يعمل ظلماً ولم يكن في فمه غش.

أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن.... هذا لا يعني أن الرب سكب غضبه وعقابه على العبد بدلاً من أن يسكبه على مستحقيه. بل أن حدث العبد كان في خطة الله وقد أذن به، مع طواعية العبد الذي «جعل نفسه ذبيحة إثم» (١٠ب) بل كان الرب ملازماً للعبد في آلامه إذ جعل حياته تقدمة عن آثام الآخرين. لأجل ذلك فإن مسرة الرب بيده تنجح (٥٣: ١٠جـ).

وستكون نهاية إرساليته حافلة بالنصرة والمجد. ستظهر فيه قوة الله ولن يكون الضحية بل المنتصر، سيُحول الرب حياة العبد من الذل وعدم التقدير إلى حياة ملؤها الكرامة والبهجة وطول الأيام... «يرى نسلاً تطول أيامه». «من تعب نفسه يرى ويشبع» (قارن عددي ١١-١٢). إنها رسالة رجاء وقيامة، بعد البأس والموت (قارن حزقيال ٣٧).

لذلك يقول الرب «أقسم له بين الأعزاء، ومع العظماء يقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت نفسه وأحصي مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين». وستعتري العظماء والأعزاء دهشة من أجل العبد هذه المرة أيضاً. لأن الرب سيجعله عظيماً وينال نصيباً بين العظماء والشرفاء، لأنه المنتصر والظافر الحقيقي، الذي تقدم طريق الألم والحزن، الذي يؤدي إلى النصرة وابتهاج القلب.

العبد والمسيا

يؤكد النبي إشعياء في الجزء الثاني من السفر (٤٠-٥٥) أن الرب يهوه اختار إسرائيل لمهمة خاصة، ورسالة حية تشهد فيها للرب المخلص الفادي، لأنه الخالق لكل شعوب الأرض.

فيبدأ الأصحاح الأربعون برسالة التعزية والغفران لإسرائيل ويصل إلى القمة والذروة في التعبير عن غنى الله ولطفه وإحسانه في (أصحاح ٥٤-٥٥).

«لحيظة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك. بفيضان الغضب حجبت وجهي عنك لحظة وبأحسان أبدي أرحمك قال وليك الرب» (إش ٥٤: ٧-٨) أنه لأجل العهد الأبدي الذي قطعه الرب مع داود الملك، يأتي من نسله الذي جعله الرب شارعاً للشعوب رئيساً وموصياً للشعوب. لهذا يقدم الرب الدعوة لكل إنسان قائلاً: «أيها العطاش جميعاً... والذي ليس له فضة... أميلوا آذانكم وهلموا إليّ اسمعوا فتحيا أنفسكم وأقطع لكم عهداً أبدياً، مراحم داود الصادقة، هوذا قد جعلته شارعاً للشعوب رئيساً وموصياً للشعوب، ها أمة لا تعرفها تدعوها وأمة لم تعرفك تركض إليك من أجل الرب إلهك، وقدوس إسرائيل لأنه قد مجدك» (٥٥: ٣-٥).

ويؤكد إشعياء أن عهد الرب مع داود هو عهد «نعمة ورحمة» محبة دائمة مستمرة لكل من يقبل الدعوة ويأتي إلى الرب، وآلام إسرائيل بمثابة جهاد حسن من أجل الرب (قارن ٤٠: ١-٢). يرى أحد المفسرين اليهود بأن العبد هنا يشير إلى إسرائيل الحقيقي عندما يحيا لإلهه باتضاع، وفي علاقة حميمة وطيدة معه، فتصير آلامه قُوة إلهية لإرجاع وتجديد البشر جميعاً وبهذا تُتمم إسرائيل دعوتها.

لكن علماء الكتاب يرون أن هذه القصائد النبوية الخاصة بالعبد المتألم قد تحققت في الرب يسوع المسيح، فنجد مثلاً في أعمال الرسل (٨: ٢٦-٣٩)، قصة الخصي الحبشي الذي كان وزيراً لكنداكة ملكة الحبشة، وهو يقرأ في المركبة من سفر إشعياء الجزء الخاص بالعبد المتألم (الأصحاح ٥٣). وكان متحيراً في معنى الكلمات وسأله فيلبس الرسول المسيحي قائلاً له: ألعلك تفهم ما أنت تقرأ فأجابه الوزير على الفور كيف يمكنني أن أفهم إن لم يرشدني أحد. وطلب الوزير الحبشي إلى فيلبس أن يصعد إلى المركبة ويجلس معه، وأما فصل الكتاب الذي كان يقرأه فكان،

«مثل شاة سيق إلى الذبح ومثل خروف صامت أمام الذي يجزه هكذا لم يفتح فاه» .... وشرح فيلبس للوزير الحبشي هذه الكلمات مبشراً إياه بيسوع (أع ٨:٢٩)، إنه العبد المتألم، إسرائيل الحقيقي.

وبهذا فُتحت كل الأبواب لجميع الشعوب بذبيحة النيابية، وليس لإسرائيل فقط (قارن أع ٨:٣٦-٣٩).

وقد تجلت العلاقة بين العبد المتألم وكرازة يسوع في قوله «لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه عن كثيرين»(مرقس ١٠:٤٥).... «وإنه ينبغي أن يتم فيّ هذا المكتوب وأحصي مع أثمة. لأن ما هو من جهتي له انقضاء» (لوقا ٢٢:٣٧، قارن ١كو ١٥:٣).

ويرى جيمس موليـنبرج J.Muilenburg اللاهوتي المعاصر أن ما جاء في (مرقس ١:١١) وقت معمودية يسوع مقتبس من (إش ٤٢:١). كما أن البشير متى يفسر معجزات يسوع كتتميم لإشعياء (٤٢:١-٤، مت ١٢:١٥-٢١، قارن أيضاً ٨:١٧) وفي التجلي أيضاً (مرقس ٩:٢-٨، مت ١٧:١-٨، لوقا ٩:٢٨-٣٦).

وقد استهل له المجد إرساليته في الناصرة حيث كان قد تربى ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت، وقام ليقرأ من سفر إشعياء الذي كان مكتوباً فيه «روح الرب عليّ» لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة، ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم.... وابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم» (لوقا ٤:١٦-٢١، قارن إشعياء ٦١:١-٢).